تخترق حجب الغيب ويستغل الدجالون غريزة الاستطلاع عند الناس والله أعلم

تقدم العلوم

ولتسرب هـذه الثقافات المختلفة والعناصر المختلفة الى المسلمين ،ظهر أثر واضح هو تحول العلوم من أشـكالها البسيطة الدائمة الى قواعد علمية ، وتسـابق العلماء فى ذلك ، كل يريد أن يؤسس علما . وتشارك فى هذا العمل علماء من العرب كالخليل بن أحمد الفراهيدى ، وعلماء من الفرس كسيبويه وأبى حنيفة ، ومن الهنود كابن الاعرابى، وعلماء من المسلمين وعلماء من النصارى ، فكانت حـركة غريبة حقا . فهذا النحو يتحول من نظرات بدائيةومسائل جزئية كالتى تروى عن أبى الأسـود الدؤلى الى علم تام وقواعد منظمة ، كالذى كان من الخليل وتلميذه سيبويه

وهذا الفقه يتحول من مذهب مكون من جمع للحـديث واستنتاج منه الى مذهب قيـاسى منطقى كالذى يضـعه أبو حنيفة وصاحباه أبو يوسف ومحمد

وهذه اللغة التى كانت تجمع كلمة فكلمة قد تم جمعها ، وأخذوا يضعون معاجم في موضوعات خاصة كالخيل والابل . ثم جاء الخليل بن أحمد هذا ، فوضع بكتابه « العين » أساس المعاجم اللغوية . وهذا الأدب الذى كان يروى قصيدة أو قطعة قطعة ، أخـذ يجمع فى الكتب المطولة كالمفضليات للضبى ، والاصمعيات للأصمعى ، والنقائض لأبى عبيدة

وهذا النقد الذى كان يعتمد على الذوق الفطرى ، فتنقد

الكلمة اذا كانت نابية مثل كلمة بوزع - أو ينقد المعنى اذا كان سخيفا - كقول القائل :

هذا ابن عمى فى دمشق خليفة   لو شئت ساقكم الى قطينا

فينتقده عبد الملك بأن هـذا يقال لعامل من عماله، وأن الشاعر لو قال لو شاء ساقكم .. لكان أحسن - فينقلب الى نقد بقواعد وقوانين كالذى فعل ابن سلام فى طبقاته

وهذا التـاريخ الذى كان يعتمد على مجرد جمع الاخبار حيثما اتفق ، يؤلف وينظم فيجعل لكل أمة موضعا ، ولكل أمة حوادث حسب السنين وما جرى فيها منظمة مرتبة

وهذه الانساب التى كانت فى الصدور كتبت فى السطور ودونت تدوينا منظما ، كالذى فعل الكلبى فى كتابه الجمهرة فى الانساب

وهؤلاء رجال المحـدثين الذين كان يكتب عنهم كلمة فى تعديلهم أو تجريحهم كانت سببا فى كتب التراجم الواسعة، يعتمد فيها على الاخبار ومعرفة حيـاة كل مترجم له ونحو ذلك ، حتى لو قلنا ان كل طائفة من المعلومات انقلبت علما ووضعت فى قواعد ، لم نكن بعيدين عن الصواب . فربما كانت معيشتنا فى القرون التى أتت بعد ، ليس الا ترددا لما ذكروا أو تعبيرا عنـه بلغة العصور المختلفة ، أو تفريقا لمجتمع أو تجميعا لمفترق من غير كثير ابتكار

يضاف الى ذلك اختلاف المذاهب والنحل وأخذها أيضا شـكلا علميا ، حتى أن المذاهب التى كانت سياسـية : كالمرجئية والخوارج وأهل السـنة والشيعة ، انقلبت الى مذاهب دينية علمية تعلل تعليلا علميا وتحلل تحليلا فلسفيا

٠٠وتعددت المذاهب حسب العقليات ومقدار الثقافة والميول السياسية والدينية

فهذا حر العقل واسع التفكير يذهب مذهب الاعتزال ، وهذا يتقيـــد بالنص وينهج منهج الرواية والجمع فيكون محدثا ، وهذا يحب عليا ويترحم على ابنه الحسين ويعطف بقلبه على من اضطهد من العلويين فيكون شيعيا ، وهـــذا يحب أبا بكر وعمر ويمجـــد أعمالهما ويفضلهما عـلى على فيكون سنيا ، وهذا يميل الى منصب وجاه وتقرب الى الخلفاء بالمذهب فيكون عباسيا ، وهذا بدوى لا يحب الرياسة ولا يميل الى التأقلم ومتابعة الظروف فيكون خارجيا ، وهـذا يعتنق الاسلام ظاهريا والوثنية باطنيا ويكره العـرب من صميم قلبه ويود رجوع دولة الفرس الى حالتها الاولى ،قبل أن يهزمهم العرب ويأخـذوا بلادهم فيكون وثنيا ٠ وهكذا وهكذا ٠٠ من تعدد المذاهب وتنوعها مما ليس له نظير فى مجتمع آخر

الأدب والأدباء

الأدب والشعراء

أوجدت العوامل التى ذكرناها فى الفصل السابق نشـــاطا عقليا غريبا وتناحرا بين الاديان المختلفة يشبه التناحر على العصبيات المختلفة واخــذ العلمـــاء يشرحون أنواع الادب ، ويرون أن الأدب والنقد نتيجة لبيئات مختلفة .. فصبهـــا العلماء فى العراق كلها صبا واحدا ، فمثلا كان أدب الحجاز غير أدب الشام غير أدب بغداد

كان أدب الحجاز بحكم تنحية الحجازيين عن السياسة فى أيام العهد الاموى وبحكم كثرة الغنائم وكثرة الفراغ مجـالا للترف والنعيم،ولذلك كان رافع لواء ذلك الادب عمر بن ابى ربيعة ، وغزله ، ثم ما تبعه من مدرسته تعمل عمله وتنقده

وكان أدب الشام متاثرا ببيئته ، اذ كانت دمشق عاصمة الخلفاء يأتيها الناس من كل فج عميق للمديح ، وفيها التناصر السياسى . لهذا كان أغلب الشعر فيها مديحا وسياسة

وكان العراق على حدود البادية ، فــكان الشعر فيهـــا امتدادا للشـــعر الجاهلى ، وأنشأوا فيها المربد ، يتسابقون فيه الى الشعر كعكاظ ويتحلقون حول جرير والفرزدق ، فكان ادبهم من جنس الأدب الجاهلى هجاءا وفخرا واعتدادا بالعصيان ونحو ذلك ، فلما تحولت الحاضرة من دمشق الى بغداد فى العهد العباسى تغير الادب . فأخذ الأدباء العباسيون

يقفون فى بغداد موقف الامويين من دمشق والعكس وكل الأدب الذى نتج من هذه البيئات صب جميعه فى العراق بفضل ما جمعه العلماء، فكان كل ذلك أدبا عربيا يتولاه النقد

ثم كانت الحياة الاجتماعية فى العصر العباسى حياة جديدة تخالف الحياة فى الحجاز والشام والعراق قبل العباسيين ، وكان لابد من زعماء جدد يشعرون بمواجهة الحياة الاجتماعية الجديدة. وهذا ما قام به بشار بن برد وابو نواس وامثالهم ، وكما تأثروا بالحياة الاجتماعية تأثروا ايضا بالثقافات المختلفة التى فشت فى عصرهم . فرأينا شعرا عن الاديرة ، وشعرا عن عيد النيروز ، وشعرا عن يوم الشعانين ، وشعرا عن الازهار الجديدة وغير ذلك . ولما البست زبيدة بعض الفتيات لبس الشبان ، أنشد أبو نواس شعر الغزل فى المذكر استجابة لهذه الدعوة

وحتى البيئات الخاصة كان لها أدب خاص ، فقد كان جزء من العراق يعيش فيه الخوارج .. فشعروا شعرا على مذهبهم ، وقال قائلهم :

أيها المادح العباد ليعطى ان لله ما بأيدى العباد
فاسأل الله ما طلبت اليهم وارج فضل المقسم العواد . . .
لا تقل فى الجواد ما ليس خيرا وتسم البخيل باسم الجاد

وسموا أحد شعرائهم شاعر المؤمنين ، وشعراء الخليفة العباسى شعراء الكافرين .. فشعراء الخوارج يزنون الشعر بميزان الدين والاخلاق ، بينما يزنه شعراء الخلفاء والامراء بالميزان الفنى البحت ويجعلون امامهم الشعر الجاهلى والنزعات الداخلية

كل هذا صب فى العراق صبا ، وتعدد المقلدون حسب هذه المذاهب المختلفة ، فكان لنا العباس بن الأحنف يشبه عمر بن أبى ربيعة ، وابو نواس يشبه الوليد بن يزيد الاموى، والخوارج الاخيرون يشبهون الخوارج الأولين وهكذا ..

التقدم اللغوى

وبلغت اللغة الذروة فى عهد الرشيد لنمو الثقافة والحضارة فى عهده . وقد كان هارون ظلها الظليل ، والمغدق على العلماء والشعراء والموسيقيين . ولقد أخذت علوم العربية فى عهده نهضة جديدة اقترنت بأسماء الاصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد والفراء والكسائى ، وهؤلاء جميعا اتخذوا لغة البدو هى المثل الاعلى والنموذج الرفيع . وكانوا دائما يقاومون لغة العامة فى لحنهم حتى أنكروا على الفراء انه لحن بمحضر الرشيد ، وانه اعتذر عن ذلك بأن اللحن عند سكان المدن لازم لهم كالأعراب عند أهل البادية

ولقد كان محببا الى الخليفة أن يجالس النحاة ويستمع الى جدلهم .. وكان يقدر سلامة اللغة حق قدرها ، ويدقق فيما لم يفهمه . فقد سمع الأصمعى يقول : « ما لاقتنى بعدك أرض » ، اى لم تمسكنى . فلم يرتح حتى استفسر عنها . وكان مما حبب زبيدة الى الرشيد فصاحتها وبلاغة أسلوبها ، كالذى رؤى لها من خطابها للمأمون عند ما قتل ابنها الأمين مما عد خير الكتب وابلغها

وكان الرشيد دقيق الفهم للعربية حتى كان يستطيع أن يفرق بين ماذا قلت أنا قاتل غلامك على سبيل الاضافة بمعنى قتلت غلامك . وبين أنا قاتل غلامك بالتنوين على معنى

سأقتل غلامك . وكان يفـرق بين قولك انت طالق طالق طالق . وقولك انت طالق وطالق وطالق ، مما يدل على دقة الذوق

وكان العلمـــاء اذا اختلفـوا فى شىء ، رجعوا الى البدو يستفسرونهم ويحكمون بينهم . وكانوا يصححون كثيرا مما يجرى من اللحن على السنة العوام. وقد نسبوا الى الكسائى كتابا فى لحن العامة عمله لهرون الرشيد ، وهو وان لم تكن نسبته صحيحة ، فانه يعد اقدم الآثار الأدبية فى تنقية اللغة العربية ، وهو يحتوى على نحو ١٠٢ غلطة من الغلطات التى تجرى على السنة العوام . وقد بلغت تنقية اللغة العربيـة هذه ذروتها فى لغة أبى نواس . نعم ، كانت تأتى فى شعره صيغ غريبة التصريف كتنويه سنون وبنون .. واستعماله احيانا جمع المذكر السالم بكسر النون بدل فتحها . واخـذ النحاة عليه قوله :

يا خـير من كان ومن يكون   الا النبى الطـاهر الميمون

فقالوا كان من الواجب نصب الا النبى. وأكثر من ذلك تركه الاعراب احيانا واستعمال صيغ ماضية احيانا ، وقوله فى بعض شعره يأتك بسكون الكاف على الوقف وقوله :

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها   حصباء در على أرض من الذهب

فانتقدوا صغرى وكبرى . على انه فيما يظهر يأتى بهذه الاشياء لا على انها لحن بل يتعمدها تعمدا استصغارا لقواعد النحو . وكان فى امكانه تجنبها ، ولكنه كان يهزأ بالنحو كما يهزأ بالعرب . وعلى العموم كان من كثرة الاحتكاك بين البدو والحضر فى عهد الرشيد ومجادلات العلماء والمكافاة عليها بسخاء

منه ، وما منح من ذوق لغوى دقيق حتى أن الادوار الغنائية التى اختيرت له كانت كلها باللغة الفصحى

وفى عصر الرشيد رويت لنا بعض القوالب الشعبية كالتى تسمى المزدوجة . وهو قالب شعرى يؤلف فيه بيتان قصيران متحدا القافية .. وقد نظم عليه أبو العتاهية أرجوزته المشهورة فى ذات الامثال . قالوا انها تشتمل على اربعة آلاف حكمة ومثل لم يصلنا منها الا جزء صغير ، واختار ابان بن عبد الحميد اللاحقى معاصر أبى العتاهية نفس القالب المطابق للمثنوى الفارسى ، عندما نظم كليلة ودمنة وافتتحه بقوله :

هذا كتاب أدب ومحنه وهوالذى يدعى كليلة ودمنه
فيه احتيالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند

□

وفى عهد الرشيد ظهر شاعر ثالث .. هو بشر بن المعتمر المعتزلى الذى زج به الرشيد فى السجن بعض الوقت لتشيعه. .اذ نهج نهجا لم يسبق اليه فى وضعه قصيدتين ، قالهما فى الاشادة بحكمة الله المتجلية فى الحيوان،وقد رواهما الجاحظ فى كتاب الحيوان ، الى غير ذلك .. كما ظهر فى عصر المأمون المواويل كما سنذكر .. . .

على كل حال اختلطت هذه الثقافات كلها ، وصبت فى بغداد ، وتأثر بهما المسلمون الى حد كبير ، وكانت الزينة العقلية فى بغداد فى عصر الرشيد . واختلف الناس فى الاستفادة منها بمقدار عقولهم وظروفهم . هذا يميل الى

الفرس ، وهذا يميل الى الهند ، وهذا يميل الى اليونان ، وهذا يميل الى الرومان

دروس وتجارب

وبعد هذه المرحلة كان هناك من المسلمين من يصح أن يسموه كتاب دوائر المعارف مثل الجاحظ وأمثاله . وكانت هذه الثقافات سببا كبيرا من أسباب ازدهار الحضارة الاسلامية وحسن سمعة الرشيد . على أن للرشيد بجانب هذه الدروس العربية التى كان يتلقاها دروسا أخرى من النظام الفارسى كان يتلقاها باللغة العربية من يحيى بن خالد البرمكى والفضل بن يحيى ، وجعفر وأمثالهم . وكان يتلقى بالعربية من اليونانية عن جبريل بن بختيشوع طبه وفلسفته اذ كان الطب ملونا باللون اليونانى

وكانت هناك ثقافة تفوق ذلك كله ، وهى تجاربه فى الحياة مما كان يرى فى قصر أبيه ، وما كان يراه من الجوارى المختلفة الاجناس حوله ، ومن حروبه المختلفة . ومما كان يشاهده من أبيه المهدى أيام حروبه للزنادقة وامتحانه لهم ، وتوجيه التهم اليهم ومحاكمتهم . ومن الايام القاسية التى قاساها أيام كان أخوه الهادى يريد حرمانه من ولاية العهد وتولية ابنه

□

واذا كانت الحياة كلها دروسا ، فقد كانت دروسه كثيرة من كثرة ما لاقى وما شاهد وما سمع . وتمت تجاربه بعد

ان نكل بالبرامكة ، وتولى هو ما كان لهم من سلطان وما كانوا يحملون من تبعات ، وكان له ذوق فى الشعر حاد شديد ، وكان ذواقا يطرب للشعر فيجلس من اتكاء أو يقف من جلوس ، واذا كره شاعرا غضب منه غضبا شديدا ، وكان له مذهب خاص فى الشعر . يقول ابو الفرج الاصفهانى فى الأغانى أن منصورا النمرى ظفر بحظوته عند الرشيد لأنه عرف مذهبه فى الشعر . وهو ان يصل مدحه اياه بنفى الامامة عن ولد على والطعن عليهم ، وقد تعلم ذلك مما كان يبلغه من تقديم الرشيد لمروان بن ابى حفصة وتفضيله اياه على الشعراء فى الجوائز . فسلك فى ذلك مسلك مروان ونحا نحوه وذلك مثل قوله :

خلوا الطريق لمعشر عاداتهم حطم المناكب كل يوم زحام
ارضوا بما قسم الاله لكم به ودعوا وراثة كل أصيد حام
أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى النبى وراثة الاعمام

الترجمة فى عهد الرشيد

وفى عهد الرشيد ، عنى العلماء أكثر مما كانوا من قبل بترجمة الكتب . ذلك أنه بدات بشائر قليلة فى الترجمة فى عهد المنصور . فكان من جهة ممعودا يحتاج الى أطباء ليعالجوه ، ومن جهة أخرى كان ميالا الى التنجيم من كثرة ما خالط الشيعة . فلا يكاد يعمل عملا الا استشار فيه المنجمين .. لذلك عنى بالطب والنجوم . وقد كانت مدينة جنديسابور مشهورة بالطب من عهد كسرى . فاستقدم المنصور أحد أطبائها ، وحمله على أن يقيم معهدا ببغداد كمعهد جنديسابور . كان هذا الطبيب يعرف اللغة اليونانية

والسريانية والفارسية والعربية . فلما راى المنصور يقربه نقل له كتبا طبية من اليونانية غير التى الفها باللغة السريانية. وعكف الناس على هذه الكتب ، وقد قالوا ان ابن المقفع نقل أيضا من كتب الفرس الى العربية كتبا فى المنطق والطب . كان الفرس قد نقلوها من اليونان

فلما جاء المهدى كان الناس قد نضجوا بعض النضج فى الترجمة بفضل ما وضع فى عهد المنصور . ولكنه شغل بحركة الزندقة ، لان المترجمين لم يقتصروا على ترجمة كتب الطب والتنجيم وغيرها ، بل ترجموا ايضا كتب الزنادقة . فلما فشت الزندقة فى أيامه ، تفرغ لها وقتل من اعتنقها من جهة. وامر المتكلمين من جهة اخرى بالرد عليهم ، وخصوصا المعتزلة

وقد كانت نزعة الرشيد اقوى وزمنه اهدأ ، وماله اكثر خصوصا وقد توافد على بغداد كثير من العلماء العارفين باللغات من السريان والفرس والهنود والروم . وكان منهم من تعلم اللغة العربية لانها اللغة الرسمية للدولة . فحملهم على ترجمة الكتب ، وقد توسعوا فى الترجمة وترجموا غيرها من فروع الفلسفة .. اذ كان الطب والتنجيم يعدان فرعين من فروعها ، بجانب المنطق وما وراء الطبيعة والطبيعة وغير ذلك

□

وكان الرشيد فى حروبه الكثيرة مع البيزنطيين ، يفتح بلادا ومدنا تحتوى كتبا يونانية ورومانية كثيرة ، فلم يكن يحرقها او يبددها . بل ينقلها الى بغداد فى عناية .. من

ذلك انه عثر أثناء حروبه فى انقرة وعمورية على كثير من الكتب ، فحملها الى بغداد وامر طبيبه يوحنا ابن ماسويه بترجمتها الى العربية . كما أمر الحجاج بن مطر بترجمة كتاب أقليدس فى الهندسة . وكانت ترجمته الى العربية هذه لاول مرة ، ثم ترجم فيما بعد ترجمة ثانية . وميزوا الاولى بأن اطلقوا عليها الترجمة الهارونية نسبة الى هارون الرشيد

وشاركه العظماء فى ذلك ، فيحيى بن خالد البرمكى أمر أيضا بترجمة كتاب المجسطى ، ثم جاء بعد ذلك المأمون فاستغل ما ترجم قبله وزاد عليه كثيرا . والناس على دين ملوكهم .. فلما رأوا المأمون يميل الى ترجمة الكتب وينفق على ترجمتها عن سخاء اتبعوا مذهبه . وقد ساعده على ذلك نضوب الحركة التى بدات قبله ، كما ساعده أيضا وجود جماعة من أحرار الفكر من المعتزلة حوله كأبى الهذيل العلاف والنظام

وقد ابلى بلاء حسنا فى هذه الترجمة السريانيون .. فقد كانوا اكثر اتصالا بالفلسفة من قبل العرب . وكانوا قد نقلوا كثيرا من الكتب اليونانية الى اللغة السريانية . وكانوا يعلمون اللغة اليونانية فى مدارسهم واكثرها فى العراق . فلما انتقل كرسى الخلافة الى بغداد ، وراوا حاجة المتكلمين بالعربية الى هذا العلم حولوا ما نقلوا من السريانية الى العربية طلبا للرزق ، وحبا فى التقرب الى الناطقين بالعربية

حدة مزاج الرشيد

ولقد كان الرشيد مثقفا ثقافة واسعة ، وكان كبير

العقل عالى الهمة كريم النفس .. ولكنه من ناحيته العاطفية كان حاد المزاج ، يكون فى مجلس وعظ ودين فيتدين ويفرط فى التدين ، ويصلى مائة ركعة فى اليوم ، ويحج ماشيا . ويكون فى مجلس غناء أو شراب فيملكان عليه قلبه ، ويرضى عن البرامكة فلا حد لرضاه . ويغضب عليهم فلا حد لغضبه . ويعفو حتى ليظن الظان انه لا يعاقب ، ويحلم حتى يعفو فى مواضع العقاب ، ويغضب فيخاف من حوله من الحديث معه ، كالذى روى انه لما عاد من حروب الروم بلغه أن نقفور نقض العهد الذى عهده، فخاف وزيره من القاء الخبر عليه . فأوعز للشعراء أن يخبروه بالخبر، فقال عبد الله بن يوسف :

نقض الذى أعطيته نقفور	فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فانه	غنم اتاك به الاله كبير
فتح يزيد على الفتوح مؤيد	بالنصر فيه لواؤك المنشور
فلقد تباشرت الرعية ان اتى	بالغدر منه وافد وبشير
ورجت يمينك ان تعجل غزوة	تشفى النفوس مكانها مذكور
نقفور انك حين تغدر ان نأى	عنك الامام لجاهل مغرور
أظننت حين غدرت انك مفلت	هبلتك أمك ما ظننت غرور

وقال أبو العتاهية :

تجلبت الدنيا لهرون بالرضى	وأصبح نقفور لهرون ذميا

وقال غيره :

لجت بنقفور أسباب الردى عبثا	لما رأته بغيل الليث قد عبثا

فلما علم بذلك عاد من وقته يحاربه، وهكذا العاطفة الحادة تكون كجو امشير : هادئة فى لحظة ، ثائرة فى لحظة . .. ..

حظه أكبر من صفاته

وربما كانت شهرته أكبر منه وحظه أكبر من صـــفاته ، ولكنها الدنيا اذا أقبلت على أحد وهبته محاسن غيره ، واذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسـه . والحق ان العشرة الاولين من الخلفاء العباسيين كانوا كلهم عظاما اذا استثنينا الأمين . وكان لكل منهم ميزة فى تأسيس الدولة العباســية ورفع شأنها .. ولكن لم ينل أحد من الحظ ما نال الرشيد . وحتى الامين لا نستطيع ان نصدق كل ما روى عن بلاهته وغفلته . فقد وضع عليـه القصاصون حـكايات كثيرة لا تتفق مع ترشيحه للخلافة فى ذلك العصر ، ومع تربيته تربية دقيقة رباه بها الرشيد

ولكن المؤرخين دائما مولعون بالاستهانة بمن سقط فى الميدان ، واعلاء شأن من نجح فيه . ولو كان الامين قد تغلب على المأمون ، لانعكست الآية من عصر الى عصر .. خصوصا وان التاريخ الاول للامين وضع فى عهد خصمه المأمون وانتقل بعد ذلك

مأساة البرامكة

البرامكة

وقد حمل اعباء الخلافة عن الرشيد فى أول عهده البرامكة فكان يرجع اليهم فى كل أمر ، ويحملون التبعات فى كل شأن .. واتسع سلطانهم وعلا شأنهم ، وقصدهم جميع الشعراء بالمدائح . وكانوا من حسن السياسة ما حببهم الى الرعية ، وكل من هذه الأسرة اتخذ له صنائع بما غمرهم من اموال

والبرامكة هؤلاء ينتسبون الى برمك . وبرمك هذا كان كاهن بيت النار فى مدينة بلخ المسمى النو بهار . وهو معبد للديانة الزرادشتية . وكانت هذه الديانة مملوءة بالطقوس المعقدة وبالسحر وبالأسرار . فلما انتقلوا الى الاسلام لم تخل صدورهم من آثار هذه العقيدة

ولمرانتهم على النظم الفارسية الدقيقة ، خدموا المدنية الاسلامية خدمة كبرى بما نقل اليهم ولهم من كتب الفرس القديمة وعاداتهم وتقاليدهم ، كالتى نقلها الجاحظ فى كتاب التاج

ووضعوا أيديهم على مال الدولة كله .. حتى كان من شأنهم اذا أرادوا أن يتصرفوا فى شىء منه ، وجدوه تحت أيديهم . واذا أراد الرشيد وقصره أن يتصرف رجع فى ذلك اليهم . وكان أول من ظهر منهم فى الاسلام خالد البرمكى ، وعلا شأنهم فى عهد الرشيد على يد يحيى بن خالد

ثم كان ان دخل فى القصر عدوهم اللدود الفضل بن الربيع . وقد جهدت الخيزران فى ابعاده عن القصر . وهو رجل نشأ على الدس واعمال الحيلة .. وورث الدس عن ابيه الربيع ، فقد كان الربيع سببا فى ان يقتل المنصور ابا ايوب المورياني . وقد جاء القصر فوجد البرامكة قد وضعوا ايديهم على كل شيء فى الدولة

فكيف الخلاص منهم ، والرشيد نفسه خاضع لارادتهم ؟ ولكن لا بأس .. فليعمل الفضل الحيلة فى اغضاب الرشيد عليهم . وكان الفضل شديد الكبر شديد الغيرة من البرامكة، لا يبلغ مبلغهم فى علم ولا نبل ولا فضل.. فحسدهم وتمنى زوال نعمتهم . فكان يوما يدس الى الرشيد ان البرامكة يعملون للوصول للخلافة . ويوما يدس اليه أن البرامكة ملاحدة وثنيون ، يحنون الى دين ابيهم القديم بدليل أن قصورهم فيها مخابىء تحت الارض ، تحوى الشعائر القديمة الزرادشتية فهم يتعبدون فيها خفية عن الناس ، ويوما يحذره من البرامكة بأنهم يؤيدون العلويين سرا ويودون نقل الخلافة اليهم . ويوما يوعز الى مغن أن يغنى الرشيد بهذين البيتين :

ليت هندا انجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة انما العاجز من لا يستبد

ويوما يوعز الى من يرسل اليه قصيدة من غير توقيع يقول فيها :

هذا ابو يحيى قد غدا مالكا مثلك ما بينكما حد
أمرك مردود الى أمره وامره ليس له رد

وهكذا وهكذا من أساليبه الخفيــة الشريرة تعاونه على ذلك السيدة زبيدة زوجة الرشيد بأحاديثها فى الليــل مع زوجها ، والطعن على البرامكة . وقد كانت تكرههـم وتود زوال سلطتهم حبا فى الرشيد ورجوع السلطة اليه واليها

نكبة البرامكة

فلما اعتزم الرشيد ان ينكب البرامكة ، كان قد قرر بعد طول التفكير أن لا يظهر ذلك لأحد . . هادى جعفر بن يحيى كالمعتاد وسلم عليه ، فرد الســلام أحسن رد ورحب به ، وضحك فى وجهه ، واجلسه فى مرتبته . وكانت مرتبتــه أقرب المراتب الى امير المؤمنين ثم حدثه وضاحكه . فأخرج جعفر الكتب الواردة عليه من النواحى فقراها عليــه واخذ راى الرشيد فيها وقضى حوائج الناس ، ثم استأذنه جعفر فى الخروج الى خراسان فى يومه هذا ، فدعا الرشيد بالمنجم كالعادة . فقال المنجم : هذا يوم نحس ، وهذه ساعة نحس ، ولا يبعد ان يكون الرشيد اتفق مع المنجم على ذلك ليصده عن السفر

ومع ذلك ، فكان جعفر يعلم ايضا شيئا من التنجيم . فاخذ الارسطرلاب من يد المنجم ، وقام وحسب النجــوم فرآها حقــا ســاعة نحس ، ثم قام وانصرف الى منزله . والناس والقواد والخاصة والعامة يعظمونه من كل جانب الى ان وصل الى قصره فى جيش عظيم . فلم يستقر به المجلس حتى بعث اليه الرشيد مسرورا الخادم ، وقال له : « امض الى جعفــر وائتنى به الســاعة ، وقل له وردت كتب من

خراسان والخليفة يريد رأيك فيها ، فاذا دخل الباب الاول فأوقف الجند ، واذا دخل الباب الثانى فأوقف الغلمان ، واذا دخل الباب الثالث فلا تدع أحدا يدخل عليه من غلمانه . بل يدخل هو وحده ، فاذا دخل صحن الدار ، فمل به الى القبة التركية ، ثم اضرب عنقه ، وائتنى برأسه

ولاتوقف أحدا من خلق الله على ما أمرتك به ، ولاتراجعنى فى أمره . وان لم تفعل امرت من يضرب عنقك » . فمضى مسرور واستأذن على جعفر ودخل عليه وقد نزع ثيابه يستريح ، فقال له : « يا سيدى ، أجب أمير المؤمنين » . فانزعج ، وقال : « ويلك يا مسرور ، أنا خرجت من عنده فى هذه الساعة فما الخبر ؟ » . قال : « وردت كتب من خراسان تحتاج الى النظر السريع » .. فطابت نفسه ، ودعا بثيابه فلبسها وتقلد سيفه وذهب معه .. وفى قلبه بعض الشك

فلما دخل من الباب الاول أوقف مسرور الجند . وفى الباب الثانى أوقف الغلمان ، فلما مر من الباب الثالث التفت فلم ير أحداً من غلمانه . فندم على ركوبه وزاد الخوف فى نفسه . وادخل القبة ، فقال لمسرور : « ما الخبر ؟ ! » . قال له : « قد أمرنى أمير المؤمنين بضرب عنقك وحمل رأسك اليه الساعة» . فبكى جعفر وجعل يقبل يدى مسرور ويقول : « قد علمت كرامتى لك دون جميع الغلمان . وانت تعرف موضعى ومحلى من أمير المؤمنين . فلعل أمير المؤمنين أن يكون قد بلغه عنى باطل فدعنى أهيم على وجهى » . فقال : «لا سبيل الى ذلك » . . قال : « فاحملنى اليه واوقفنى بين يديه ، فلعله

وقال مسرور لجعفر : « قد أمرني أمير المؤمنين بضرب عنقك ... »

اذا وقع نظره على ان تدركه الرحمة فيصفح عنى » . قال : « لا سبيل الى ذلك ايضـا » . قال : « فتوقف عنى ساعة وارجع اليـه وقل له : قد فرغت مما أمرتنى به » . فقبل منه ذلك بعد ان حل سيفه ومنطقتـه واخذهما . ومضى مسرور ووقف بين يدى الرشيد ، فرآه غاضبا أشد الغضب. فلما رآه قال متلهفا : « ماذا فعلت بأمر جعفر ؟ » . قال : « يا امير المؤمنين ، انفذت امرك فيـه » . قال الرشيد : « فاين راسه ؟ » . قال : « فى القبـة » . قال : « فأتنى براسه الساعة »

فرجع مسرور وجعفر يصلى فسل سيفه الذى اخـذه منه ، وضرب عنقه ، واخذ راسه بلحيته وطرحه بين يدى أمير المؤمنين . فتنفس الصعـداء لأنه انفـذ تدبيره الذى احكمه . وبكى بكاء شديدا على الصداقة الوثيقة التى كانت بينهما . وجعل ينكث الارض . وقبض على ابيـه واخيـه وجميع اولاد البرامكة ، وغلمانهم ومواليهـم . واستبـاح ما عندهم ووجه مسرورا الى المعسكر فأخذ جميع ما فيه من مضارب وخيام وسلاح ، وقد أحصوا من قتله الرشيد من غلمانهم ومواليهم بنحو ألف انسان . وأمر أن لا يرجع أحد من صنائعه الى وطنه خوف أن يشبوا ثورة ، وشتت شمل من بقى فى البلاد

واتى بصبيين كانا ولدى جعفر وكانا حسنين جميلين . فاستنطقهما فوجدهما فصيحين يتكلمان بلغة مدنية جميلة ، وينطقان بفصاحة هاشمية . ثم أمر بضرب عنقهما ، وأمر أن لا تذكر البرامكة فى مجلسه . ولا يستعان بمن بقى منهم

فى بغداد . ولكن زبيدة والفضل بن الربيع وغيرهما ، لم يطمئنوا الى ذلك ويحيى باق والفضل يعيش . فاذا خرجا من السجن ، فربما دبرا الانتقام ممن كان السبب . فدسوا ـ وخصوصا زبيدة ـ ورقة تحت مصلى الرشيد وفيها مدح للرشيد على عمله مع البرامكة ، وتحريض على المضى فى هذه السبيل الى آخرها . فشدد على يحيى وكان شيخا كبيرا وزاد فى حديده واغلاله . واحضر الفضل وضربه سياطا حتى كاد ان يهلكه

▭

وتذكر يحيى مرة صلته القديمة بالرشيد فكتب اليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. الى امير المؤمنين ، ونسل المهديين ، وامام المسلمين ، وخليفة رسول رب العالمين . من عبد اسلمته ذنوبه وأوقعته عيوبه ، وخذله شقيقه ، ورفضه صديقه ، وخانه الزمان ، وأناخ عليه الخذلان ، ونزل به الحدثان .. فصار الى الضيق بعد السعة ، وعالج الموت بعد الدعة ، وشرب كأس الموت مترعة ، وافترش السخط بعد الرضا ، واكتحل بالسهر بعد الكرى

« يا امير المؤمنين .. قد اصابتنى مصيبتان : الحال والمال . أما المال فمنك ولك ، وكان فى يدى عارية منك ولا بأس برد العوارى الى اهلها . واما المصيبة بجعفر فبجرمه وجراته ، وعاقبته بما استخف من امرك . واما انا فاذكر خدمتى ، وارحم ضعفى ووهن قوتى . وهب لى رضاك ، فمن مثلى الزلل ومن مثلك الاقالة . ولست أعتبر .. ولكنى أقر

« وقد رجوت ان افوز برضاك . وتقبل عذرى وصدق نيتى ، وظاهر طاعتى . ففى ذلك ، ما يكتفى به أمير المؤمنين ويرى الحقيقة فيه ويبلغ المراد منه »

فوقع الرشيد على هذا الخطاب بالآية الآتية : « بسم الله الرحمن الرحيم ـ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » فيئس يحيى وظل فى السجن حتى مات .. ولئن كانت هذه الرواية اشبه أن تكون موضوعة فهى تمثل الحال تمام التمثيل ...

□

وقد يكون الفضل بن الربيع والرشيد معذورين فى بعض ذلك ، لأنهما رأيا ان الدولة العربيـة تزول شيئا فشيئا ـ حتى لم يبق للعرب فى المملكة سلطان ، وأن السلطة تزيد فى الفرس يوما فيوما حتى قبض البرامكة على كل ما للدولة من شئون

قد يضاف الى ذلك ما يروى بعض المؤرخين من أن الرشيد كان لا يستغنى عن جعفر والعباسة ، فعقد له عليهـا حتى يحل اجتماعهما ، وأمر جعفرا أن لا يمسها. فتعهد له بذلك ، ثم طغى عليهما سلطان الغرام . ولسنا نذهب الى ما ذهب اليه ابن خلدون من استبعاد هذا . فهـذه عاطفة انسانية يقع فيها الشريف والوضيع والغنى والفقير . وكم سمعنـا بمثل ذلك فى كل العصور ، وسلطان الحب فوق كل سلطان . انما نستبعد ذلك من ناحية أخرى ، وهى أن هـذا لو كان

السبب .. لفتك الرشيد بجعفر البرمكى وحده دون يحيى الشيخ ودون اخوة جعفر

فلا بد أن يكون السبب مشتركا ، ولسنا نجد سببا مشتركا الا حيازتهم للسلطة ، خصوصا وأن مسرورا الخادم قد سأله بعض الخلفاء بعد ذلك عن حادث جعفر والعباسة . فنفاها نفيا باتا ، ولمح الى أن السبب هو السلطة . وقد كان الرشيد تنازل لهم عن كل سلطان ، فولى جعفر الغرب كله من الأنبار الى افريقية . وقلد الفضل المشرق كله من النهروان الى أقصى بلاد الترك . وهما ينيبان عنهما من أرادا .. والناس اذا رات السلطان فى يد توجهت اليها بالاستجداء والمديح والملق ، وكذلك كان شأن البرامكة .. فكان الشعراء يقفون ببابهم أكثر من الشعراء الذين يقفون على باب الرشيد ، وقد منح البرامكة سماحة وكرما. وصفهم ابراهيم الموصلى فقال : « أما الفضل فيرضيك بفضله . وأما جعفر فيرضيك بقوله . وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد . وأما موسى فيفعل ما لا يجد » . وكما أسروا الناس بحسن صنيعهم أسروهم ببلاغتهم ومأثور كلامهم ، وحسن توقيعهم حتى تناقلت كتب البلاغة عباراتهم

اشاعات مغرضة

وقد فكر الرشيد طويلا فى الايقاع بهم لعظم مكانتهم ، وخوفه من الثورة عليه من أجلهم ، فكان مما احتاط أن يشيع بين الناس كفرهم وزندقتهم ، وانهم يظهرون الاسلام ويبطنون الكفر ، وأن عندهم بعض بقايا من الآثار الوثنية

ونحو ذلك حتى تكرههم العامة . فأوعز مثلا الى الاصمعى ان يقول فيهم ما يحط من شأنهم كالذى قال :

اذا ذكر الشرك فى مجلس   اضاءت وجوه بنى برمك
ولو تليت بينهم آية   اتوا بالأحاديث عن مزدك

واشاع فى الناس انهم زنادقة حتى ان يحيى بن خالد لما نقل من سجن الى سجن ، اعتدى عليه رجل واظهر له الاحتقار فخاف يحيى أن يكون قد ظلمه ، أو بخل عليه .. فبعث اليه من يسأله . فلما علم انه يرميه بالزندقة اطمأن الى ذلك لأنه علم أنها دسيسة عليه . وبذلك وامثاله أوجد الرشيد حول البرامكة جوا مسمما

وربما كان من ذلك ما اشاعه عن علاقة جعفر بالعباسة ووعد جعفر للرشيد ، بأن لا يقربها لأنه الى ذلك العهد كانت الغيرة فاشية فى الناس . فلما نكل بهم الرشيد لم يثر الناس وقابلوا الأمر بالهدوء

ولولا نشاط الدعاية ضدهم لثار الناس على الرشيد وفتكوا به ان استطاعوا . وكان يحيى البرمكى يحذر هذه النتيجة ويعمل على قصر سلطان جعفر . فقال للرشيد غير مرة : « يا أمير المؤمنين . اننى أكره مداخل جعفر . ولست آمن أن ترجع العاقبة على فى ذلك منك . فلو اعفيته واقتصرت على ما يتولاه من جسيم اعمالك ، لكان احب الى واولى بتفضلك » فلم يقبل الرشيد هذا . وكثيرا أيضا ما كان يحيى يقول : « الحكيم من توقع الشر » ويقول : « لا ارحام بين الملوك وبين احد » خصوصا وانه علم ان الرشيد يصغى الى الفضل بن الربيع

وقد أحكم الرشـــيد فعلته ونشر الجواسيس يتجسسون على من يمدحون البرامكة ويبكون عليهم . ويقطع راس من بلغه شيء عنه ، حتى خشى الناس وانكروا الصنيع

وأسدل الستار على هذه القتلة الشنعاء .. هذا فى نظرى اهم سبب لقتل البرامكة وهو غيرة الرشيد من سلطانهم وتحكمهم فيه ، وعلو شأنهـم على شأنه . أما ما عداه من الأسباب فأسباب ثانوية . وقد أولع المؤرخون ان يجعلوا لكل شيء كبير سببا واحدا ، فلا بد أن يكون لغضب الرشيد على البرامكة سبب واحد . واذا كان ابو العلاء المعرى فى شعره كافرا أحيانا مؤمنا أحيانا ، فلا بد ان يكون كافرا فقط أو مؤمنا فقط . فلذلك وقعوا فى العنــاء والأخطاء . وماذا يجرى للدنيا لو كانت هناك اسباب مختلفة تنتج سببا واحدا . فقـد عمـل على اسقاط الدولة الأموية اسـباب عديدة . وأبو العلاء بكل بساطة مؤمن حينا ، كافر حينا . شأنه فى ذلك شأن أكثر العقلاء فى الحياة، يرون من مظاهر الدنيا ما يحملهم على الكفر احيانا ويرون منهـا ما يحملهم على الدين أحيانا . بل حكى لنا الغزالى فى كتابه « المنقـذ من الضـلال » انه آمن ايمان العجـائز أحيانا . وشك أحيانا . وآمن بالكشف أحيانا . فلم لا تكون نكبة البرامكة ناتجة من جملة أسباب لا سبب واحد ، أولها : غيرة الرشيد من سلطانهم، وثانيها: عطفهم على العلويين ، وثالثها: علاقة جعفر بالعباسـة الى غير ذلك . على أنه ما يدرينـا لعل الرشيد نشر فى الناس علاقة جعفر البرمكى بأخته ليستثير كره الناس لهم ويستخرج غضبهم ومقتهم . والا فلو نظرنا الى المسألة بالعين العادية لم نجد فيها محلا للغضب والمقت ،

حتى ولو صح ، فما فى هذا مأخذ على شاب يألف زوجته ويتصل بها

قاتل الله السياسة

وليس قدر جعفر ولا أصوله بأقل من قدر الرشيد نفسه وأخته ، الا أن الرشيد فخور بعربيته .. وجعفرا فخور بفارسيته . والرشيد فخور بابن عباس .. وجعفر فخور بجده برمك . والاسلام يقول : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » . ولا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى . ولو خطب الرشيد لأخته ما عثر على مثل جعفر . ولكنها السياسة ارادت أن تكره الشعب فى البرامكة فاخترعت لها اختراعات متعددة من مثل هذا الزواج الذى ليس فيه ما يؤخذ عليه . ورميهم البرامكة بالزندقة ونحو ذلك .. وكلها خوفا من الناس أن يثوروا على الرشيد لفتكه بقوم عدول فى حكمهم كرماء لقصادهم ، محبين لمن يتصل بهم .. وقاتل الله السياسة !

▭

على كل حال غضب الرشيد عليهم من كثرة ما سمع من الفضل بن الربيع ومن زبيدة وانصارهما ، ونوى أن يسلبهم سلطانهم ويسترد تصرفه كما يشاء . واخذ يستشير غيرهم من مثل يزيد بن مزيد الشيبانى وهرثمة بن أعين ، فأخذ الرشيد يتغير قلبه على البرامكة ويستقبح منهم ما كان يستحسن . فحدثنا الجهشيارى أن الرشيد سمع مرة ضجة شديدة ، فقال : ماهذا ؟ فقيل له : يحيى بن خالد

ينظر فى امور المتظلمين . فدعا له الرشيد وقال : : « بارك الله فيه واحسن جزاءه .. فقد خفف عنى وحمل الثقل دونى ، وناب منابى » . ثم ذكره ذكرا جميـلا .. وامن الحاضرون على قوله وزادوا فى ذكر محامده

هذا ايام الرضا .. أما حين تغير قلبه فقد ارتفعت ضجة شديدة كتاك ، فقال الرشيد : ما هذا ؟. فقيل : يحيى بن خالد ينظر فى أمور المتظلمين .. فذمه وسبه وقال : « فعل الله به وفعـل .. استبد بالأمور دونى وامضاها على غير رايى ، وعمل بما أحبه دون محبتى . فأمن الحاضرون على رايه وزادوا فى ذكر المساوىء

ودخل يحيى مرة أخرى على الرشيد وهو خال ، فانتظر قليلا .. فلم يفتح له حديثا فاستأذن وخرج. فقال الرشيد لبعض الخدم : الحق بيحيى .. فقل له : «خنتنى فاتهمتنى» . فقال للرسول : « تقول له يا امير المؤمنين ، اذا انقضت المدة كان الحتف فى الحيلة .. ووالله ما انصرفت عن خلوتك الا تخفيفا عنك »

□

ومما يؤيد رأينا فى أن السبب الأكبر فى نكبة البرامكة غيرة الرشيد منهم ، وحبه لاسترجاع سلطانهم وأموالهـم .. ما رواه الجهشيارى من ان يحيى لما أحس من الرشيد تغيره عليه ، ركب الى صديق له من الهاشميين . فشاوره فى هذا الموقف . فقال له الهاشمى : ان امير المؤمنين قد احب جمع المال وقد كثر ولده .. فأحب ان يجمع لهم الضياع ، فلو

نظرت الى ما فى ايدى اصحابك من ضياع واموال فجعلتها لولد امير المؤمنين وتقربت بها اليه رجوت لك السلامة

فهذا يدل على ان من اكبر اسباب غضب الرشيد على البرامكة ايضا حسده لهم وطمعه فى اموالهم ...

وليس المال يقصد لذاته ، وانما يقصد للسلطان والعظمة.. فاذا طمع الرشيد فى مالهم فطمعه فى سلطانهم اشد ، وهذا يؤيد ما ذهبنا اليه ، خصوصا وان الرشيد قد كبر وفهم المسئولية وقدر عليها فأراد ان يزحزحهم عن سلطانهم ويحل محلهم

وقد اخذ الرشيد من كل ما فكر وشاور يقضى على البرامكة قضاء شنيعا . فقتل بعضهم وسجن بعضهم الى ان يموت ، وقتل من تولاهم من الشعراء ومن كان يقف ببابهم . وتنتهى بذلك دولة البرامكة ، ويسترد الرشيد سلطانه ويعيد الى نفسه سلطانهم وعظمتهم

الناس قسمان !

والناس فى كل زمان ومكان ينقسمون الى قسمين : قسم وهم الأغلب يميلون مع الريح كيف تميل ، لهم قدرة على شمها من اين تأتى . فهم يتجهون معها كلما هبت من ناحية . لا بأس ان يتجهوا فى الصباح اتجاها وفى المساء اتجاها آخر مناقضا ، لا يحركهم الا ترقبهم لمصلحتهم الشخصية . فاذا قال رئيسهم اسود قالوا اسود .. واذا قال ابيض قالوا ابيض لايقمعهم ضمير ، ولا تصدهم اخلاق. وقسم ، وهو القليل ، وفى ثابت على مبدأ .. يحتمل العذاب

فى سبيل ثباته ، ليس عبدا للمال ولكنه عبد للضمير

وقد كان هذا شأن الناس مع البرامكة .. فمنهم من جحد فضلهم وانقلب عليهم ، بمجرد أن احسوا غضب الرشيد عليهم او تملقا للفضل بن الربيع لأنه كان يتوقع انتصاره كالذى يقول :

قل للخليفة ذى الصنا ئع والعطايا الفاشيه
وابن الخلائف من قريش والملوك العاليه
رأس الأمور وخير من ساس الأمور الماضيه
ان البرامكة الذين رموا لديك بداهيه
عمتهم لك سقطة لم تبق منهم باقيه
فكأنهم مما بهم أعجاز نخل خاويه
صفر الوجوه عليهم خلع المذلة بادية
مستضعفون مطردو ن بكل أرض قاصيه
ومنازل كانوا بها فوق المنازل عاليه
اضحوا وكل مناهم منك الرضا والعافيه

وكالذى يقول على لسان الرشيد :

يا آل برمك انكم كنتم ملوكا عاتيه
فعصيتم وطغيتم وكفرتم نعمائيه
اجرى القضاء عليكم ما خنتموه علانيه
من ترك نصح امامكم عند الأمور الباديه

اما الآخرون فكالذى يقول :

ان البرامكة الكرام تعلموا
فعل الكرام فعلموه الناسا

كانوا اذا غرسوا سقوا واذا بنوا
لم يهدموا مما بنوه اساسا
واذا هم صنعوا الصنائع فى الورى
جعلوا لها طول البقاء لباسا

ومن هذا القسم الثانى ما روى عن أبى زكار الأعمى ، وكان شاعرا مغنيا . وقد ذكروا انه كان منقطعا للبرامكة يشعر فيهم ويغنيهم .. وكم بكى على مقابرهم بعد موتهم . وقد روى الأغانى انه لما أمر الرشيد بقتل جعفر بن يحيى ، دخل عليه مسرور الخادم فوجد عنده أبا زكار الأعمى وكان يغنيه بالأبيات الآتية :

فلا تبعد فكل فتى سيأتى   عليه الموت يطرق او يغادى
وكل ذخيرة لا بد يوما   وان بقيت تصير الى نفاد
وهل يفنى من الحدثان شيء   فديتك بالطريف وبالتلاد

فلما اراد ان يقبض على جعفر قال له ابو زكار : «ناشدتك الله الا ألحقتنى به » . فقال له مسرور : « وما رغبتك فى ذلك ؟ » . فقال : « انه اغنانى عمن سواه باحسانه فما أحب ان أبقى بعده » . وحكى مسرور ذلك للرشيد فقال : « هذا رجل فيه مصطنع ، فاضممه اليك فانظر ما كان يجريه عليه جعفر فأتممه له » . وهى رواية تخالف بعض الشيء الرواية السابقة فى مقتل جعفر

كما كان من الأوفياء كثير من الصالحين والشعراء. فيروون انه لما بلغ سفيان بن عيينة الامام المشهور خبر جعفر وقتله وما نزل بالبرامكة ، حول وجهه الى القبلة وقال : « اللهم انه كفانى مؤنة الدنيا ، فاكفه مؤنة الآخرة »

ورثاهم كثير من الشعراء ، فقال الرقاش :

هدأ الخالون من شجو فناموا
وعينى لم يلامسها منام
وما سهرى لأنى مستهام
اذا ارق المحب المستهام
ولكن الحوادث ارقتنى
فلى سهر اذا هجد النيام
أصبت بسادة كانوا نجوما
بهم نسقى اذا انقطع الغمام
على المعروف والدنيا جميعا
لدولة آل برمك السلام
فلم أر قبل قتلك يا ابن يحيى
حساما فله السيف الحسام
اما والله لولا خوف واش
وعين للخليفة لا تنام
لطفنا حول جذعك واستلمنا
كما للناس بالحجر استلام

وقال دعبل الخزاعى :

ولما رايت السيف صبح جعفرا
ونادى مناد للخليفة يا يحيى
بكيت على الدنيا وأيقنت أنما
قصارى الفتى فيها مفارقة الدنيا

وقال صالح بن طريف :

يا بنى برمك واها لـكم   ولأيام لـكم مقتبـلـه
كانت الدنيا عروسا بكم   وهى اليوم شلول أرمله

□

وقد صودرت أموالهم واصبح من لم يقتل منهم يستجدى وشوهدت أم جعفر تستجدى غنيا يوم الأضحى فسألها عن حالها ، فقالت : « والله لقد جاء على يوم مثل هذا وعندى اربعمائة وصيفة وأنا أستقلهن واذبح الذبائح الكثيرة واوزع اللحوم ، واليوم لا أملك الا فروتين افترش احداهما والتحف بالأحرى ، وهكذا تعامل الأيام ! »

وكان للبرامكة حفيد اشتهر بالشعر والظرف يلقب جحظة البرمكى ، وهو احمد بن جعفر بن موسى بن يحيى البرمكى . وكان يستجدى الأمراء بعد ان كان الشعراء يستجدون آباءه ، ويعتز بالنسب اليهم ويبكيهم على ما فعلت الدنيا بهم كقوله :

انا ابن اناس مول الناس جودهم
فأضحوا حديثا للنوال المشهر
فلم يخل من احسانهم لفظ مخبر
ولم يخل من تقريظهم بطن دفتر

وقوله :

أصبحت بين معاشر هجروا الندى
وتقبلوا الأخلاق من أسلافهم
قوم احاول نيلهم فكأنما
حاولت نتف الشعر من آنافهم

هات اسقنيهـا بالـكبير وغنني
ذهب الذين يعـاش في اكنافهـم

□

واشتد الرشيد على البرامكة شدة ليس فيها تسامح ولا لين ولا كرم ، فقد نهى عن ذكر اسمهم وعن وقوف الشعراء ببابهم او مقـابرهم وعن رثائهم . ولعـل عذره في ذلك ان البرامكة كانوا قبضوا على زمام كل الأمور واصطنعوا كثيرا من الشعراء والفنانين ، وكان لهم انصار من الفرس يأتمرون بأمرهم وينتهون بنهيهم ويعتزون بعزتهم . فلعل هذا كله يسبب ثورة تطيح بعرش الخلافة نفسها

ومن اجل ذلك ايضا خشي ابو جعفر المنصـور ابا مسلم الخراساني . ومع هذا بلغ من بعض الناس الوفاء حتى عرضوا انفسهم للقتل من حسن ما فعل البرامكة معهم

مآثر البرامكة

ومن ذلك ما يروى أن بعض الحرس وجد انسانا واقفا في بعض الخرابات وفي يده رثاء للبرامكة ، فاخذ الحارس الرجل واتى به الرشيد ، فقال له : «أما سمعت تحريمي لرثائهم ؟ » . فقال الرجل : « ان أذنت لي يا امير المؤمنين في حكاية حالي حكيتها ثم بعد ذلك انت ورايك » . فقال : « قل » . قال : « كنت من اصغر كتاب يحيى بن خالد وارقهم حالا » . فقال لي يحيى : « اريد ان تضـيفني في دارك يوما ! » . فقلت : « يا مولانا ، أنا دون ذلك !.. فداري لاتصلح لهذا » .

قال يحيى : « لا بد من ذلك » . قلت : « فان كان لا بد فامهلنى مدة حتى اصلح من شأنى ومنزلى ثم بعد ذلك أنت ورأيك » . قال : « كم امهلك ؟ » . قلت : « سنة » . قال : « كثير » . قلت : « فشهور » . قال : « نعم »

فمضيت وشرعت فى اصلاح المنزل وتهيئة اسباب الدعوة ، فلما تهيأت اعلنت الوزير بذلك . فقال : «نحن غدا عندك» . فمضيت وتهيأت فى الطعام والشراب وما يحتاج اليه . فحضر الوزير فى غده ومعه ابناه جعفر والفضل وعدة يسيرة من خواصه وأتباعه . فنزل عن دابته ، وقال : « يا فلان انى جائع فعجل لى بشيء » وقال لى الفضل ابنه : « الوزير يحب الفراريخ المشوية فعجل منها ما حضر » ، فدخلت واحضرت منها شيئا فأكل الوزير ثم قام يمشى وقال : « يا فلان فرجنا فى دارك »

فقلت : « يا مولانا ، هذه دارى ليس لى غيرها » قال : « بل لك غيرها » . قلت : « والله ما املك سواها » فقال الوزير : « هاتوا بناء » . فلما حضر قال له : « افتح فى هذا الحائط بابا » . فمضى ليفتح . فقلت : « يا مولانا كيف يجوزان يفتح باب الى بيوت الجيران والله أوصى بحفظ الجار ؟ » قال : « لا بأس فى ذلك » . ثم فتح الباب فقام الوزير وابناه فدخلوا فيها وأنا معهم فخرجوا منها الى بستان حسن كثير الأشجار والماء يتدفق فيه ، وبه من المقاعد والمساكن ما يروق كل ناظر ، وفيه من الأثاث والفرش والخدم والجوارى كل جميل بديع . فقال : « هذا المنزل وجميع ما فيه لك ! »

فقبلت يده ودعوت له ، فقال لابنه جعفر : « يا بنى هذا منزل وعيال ، فالمادة من اين تكون له ؟ » فقال جعفر : « قد أعطيته الضيعة الفلانية بما فيها ، وسأكتب بذلك كتابها » والتفت الى الفضل وقال له : « يا بنى فمن الآن الى ان يدخل دخل هذه الضيعة ما الذى ينفق ؟ » فقال الفضل : « على عشرة آلاف دينار أحملها اليـه » . فقال : « فعجلا له ما قلتما »

فكتب لى جعفر الضيعة ، وحمل الفضل المال الى فأثريت وارتفعت حالى وكسبت بعد ذلك معه مالا طائلا أنا اتقلب فيه الى اليوم . فوالله يا أمير المؤمنين ما أجد فرصة أتمكن من الثناء عليهم والدعاء لهم الا انتهزتها مكافأة لهم على احسانهم ولن اقدر على مكافأتهم ، فان كنت قاتلى على ذلك فافعل » . فرق الرشيد لذلك وأطلقه

قسوة الترك

ولما نكب النـــاس بالبرامكة وعاش من عاش منهم حتى رأوا سلطان الترك أنشدوا قول القائل :

رب يوم بكيت منه فلما صرت فى غيره بكيت عليه

فان شدة الاتراك وقسوتهم مكنتهم من أن يقتلوا الخليفة بعد اثنتى عشرة سنة من سلطانهم

وقد أكثر الترك من مصادرة الناس لأموالهم .. وكان من مصائب الرجل أن يكون غنيا . وقد صادروا الكتاب ، وصادروا الأمراء الكبار . وأخيرا تجرأوا فصادروا أم الخليفة

المتوكل لكثرة أموالها حتى اضطرت الى الهرب الى مكة ٠ وكانت تدعو وهى فى مكة على التركى الذى سلبها أموالها، وهو صالح بن وصيف التركى ، وتقول : « اللهم اخز صالحا كما هتك سترى وقتل ولدى وشتت شملى وأخذ مالى وغربنى عن بلدى » ٠ مما لم يفعله ولا بعضا منه الفرس فى أيام سلطتهم ، حتى ان البحترى لما شاهد قتل الترك للمتوكل خرج هائما على وجهه الى ايوان كسرى ٠ وفى ذلك اشارة الى تفضيله حكم الفرس على حكم الترك ، وقال قصيدته السينية المشهورة يصرح فيها بأن الفرس ليسوا بقومه ، ولكن لهم فضل بما أيدوا من ملكهم وخدموا دولتهم ٠٠مع أنه ليس من جنسهم ٠ وعلى العكس من ذلك كان الترك ٠ وانما دعاه الى ذلك كما يقول انه كان يألف الاشراف من كل جنس ٠ ويحب الاصول من كل قوم يقول :

ذاك عندى وليست الدار دارى
باقتراب منها ولا الجنس جنسى
غير نعمى لأهلها عند أهلى
غرسوا من ذكائها خير غرس
أيدوا ملكنا وشدوا قواه
بكماة تحت السنور حمس
وأرانى من بعد أكلف بالاشرا
ف طرا من كل سنخ واس

وهكذا شتان بين سلطة العرب فى عهد الأمويين،وسلطة الفرس فى عهد الدولة العباسية الاولى ٠ وعهد الأتراك فى

الدولة العباسية الثانية · فحكم البرامكة الذين نكبهم الرشيد لم يعوض فى عدلهم وكرمهم والمحافظة على الخليفة الذين يعملون تحت سلطانه ···

تدهور الدولة العباسية

وقد ذكر أحد المستشرقين أن عهد الرشيد كان مبدأ انحطاط الدولة العباسية ، وقد فكرت فى ذلك وأطلت التفكير : هل هذا صحيح ؟ وما هو السبب ؟ لانه لم يذكر سببا · هل لانه فى عهد الرشيد انقطعت بلاد المغرب عن المملكة ·· ولكن هذا وحده لا يكفى سببا للانهيار ، والاكان خروج الاندلس وهى أعظم من المغرب هى بدء الانهيار – أو يريد انتشار اللهو انتشاراكبيرا كالذى كان عند الرومانيين من أسباب سقوطهم ·· وهذا أيضا غير صحيح ، فان اللهو والترف كان حظ الخلفاء ومن يتصل بهم فقط ، أما الشعب كله فأغلبه بائس فقير جاد··أو يريد تحقيق قول الشاعر:

ما طار طير وارتفع   الا كما طار وقع

وهذا أيضا غير صحيح لان عظمة الحضارة فى عصر المأمون ، كانت أكبر منها فى عهد الرشيد

وانما السبب الذى يجعل هذا الرأى صحيحا فى نظرى هو انه فى عهد الرشيد تجلت العصبيات وبلغت فيه الذروة ·· فالامويون كانوا متعصبين تعصبا عربيا ، فالولاة عرب وكل شىء عربى أما الموالى فأذلاء خافتو الاصوات حتى ليظن العربى أن أخاه المولى لا يستحق أن يرث كما يرث ، وكان العربى أحيانا لا يريد أن يصلى وراء الامام المولى

فلما جاءت الدولة العباسية انتقلت العصبية للعرب الى عصبية للفرس فكانت التقاليد والاعياد وغير ذلك فارسية، وانحط شأن العرب لأن الدعوة العباسية قامت بأهل خراسان فحفظ العباسيون لهم جميلهم ٠ وجاء البرامكة فزادوا هذه العصبية قوة ، فهم كانوا ينشرون الثقافة الفارسية ويؤيدون كل ما هو فارسى حتى روى أن الرشيد مرة أراد أن يهدم ايوان كسرى ، فارتاع من ذلك البرامكة ٠٠ وقال له يحيى : « لا تهدم بناء دار دل على فخامته شأن بانيه الذى غلبته وأخذت ملكه » قال الرشيد : « هذا من ميلك الى المجوس ٠ لابد من هدمه » فقدر للنفقة على هدمه شيئا استكثره الرشيد فأمر بترك هدمه ، فقال له يحيى : « لم يكن ينبغى أن تأمر بهدمه،أما وقد أمرت فليس يحسن أن تظهر عجزا من هدم بناء بناه عدوك » ٠ فلم يقبل قوله ولم يهدمه

فلما نكب البرامكة وكانوا فرسا ضعفت‌العصبية للفرس أيضا،كما ضعفت للعرب من قبل ٠ وكان القتال بين الأمين والمأمون الذى سببه غلط الرشيد فى توليتهما العهد من بعده سببا آخر فى ضعف العصبيتين ٠٠فقد تعصب العرب للأمين وتعصب الفرس للمأمون فضعفت العصبيتان معا ، لأن القتال العنيف يضعف الغالب والمغلوب ٠ ولذلك لما جاء المعتصم لم يستطع أن يعتمد على العرب ولا على‌الفرس، وأتى بعنصر ثالث وهو الاتراك واعتمد عليهم٠وقد تعصبوا لعنصرهم وحاولوا اذلال العرب والفرس جميعا٠ورفع شأن العنصر التركى عليهم فنكلوا بالعرب ثم بالفرس ثم نكلوا بالخلفاء أنفسهم ٠٠ فمنهم من قتلوه ، ومنهم من سملوا

عينيه ، وكلهم قد سلبوا سلطته وجردوه من حوله

وهذا ما يصح من أجله أن يعد عهد الرشيد أول عهد بدأت فيه عناصر إنحطاط الدولة العباسية . ويكون كلام المستشرق صحيحا بهذا المعنى ، فالاتراك نتيجة لنكبة البرامكة ، والاتراك هم الذين أضعفوا شأن الخلفاء وأذلوهم وما زالوا بهم حتى سلبوهم كل سلطة .. ثم ختمت المأساة بغزوة التتار

نقطة سوداء

وعلى الجملة ، كانت نكبة البرامكة نقطة سوداء فى تاريخ الرشيد ، فقد أعلى البرامكة ثم فتك بهم . وقد زلزلت الحادثة الشرق والغرب معا ، لان البرامكة كانوا يحسنون معاملة الرعية ويتولون كل شؤونهم ويتقربون الى الشعراء، حتى قل أن نرى شاعرا لم يقل فيهم شعرا كالذى قاله بعضهم :

ألم تر أن الشمس كانت سجينة
فلما ولى هرون أشرق نورها

بيمن أمين الله هرون ذى الندى
فهارون واليها ويحيى وزيرها

وقول الآخر :

أتانا بنو الاملاك من أرض برمك
فياطيب أخبار ويا حسن منظر

اذا نزلوا بطحاء مكة أشـــرقت
بيحيى وذى الفضل بن يحيى وجعفر
فتظلم بغـــداد وتجلو لنـــا الدجى
بمكة ما حجـــوا ثلاثة أقمـــر
فما خلقت الا لجود أكفهـــم
وأقـــدامهم الا لأعـــواد منبر

وقول الآخر :

رأيت يحيى أتم الله نعمتــــه
عليه يؤتى الذى لم يؤته أحـــد
ينسى الذى كان من معروفه أبدا
الى الرجال ولا ينسى الذى يعـد

وقول الآخر :

أجدك هل تدرين ان زرت ليـــلة
كأن دجاهـــا من قـــرونك ينشر
صببت لهـــا حتى تجلت بغـــرة
كغـــرة يحيى حين يذكر جـــعفر

الى كثير من أمثال ذلك

فالنقمة عليهم روعت الناس من تقريب شديد الى تنكيل شديد ، من غير ما ذنب معروف جنوه

وأما الغربيون فقد روعهم الحادث لانه لم يكن فى نظرهم عادلا ، فلم يحاكموا بتهمة معينة ولا ســمعت أقوالهم ولا عرفت أســـباب النقمة عليهم • وتجلى المنظر عن قوم فى السماء وضعوا فى الحضيض • ومن أيد تقبـــل الى خدود ترغم •• فنقموا على الرشيد فعلته

والحق أن هذا عيب الحاكم المستبد دائما ، فهو عرضة لأن يفعل أقصى الخير وأقصى الشر . وهذه الحادثة مما شهرت الرشيد . فالانسان العظيم يشتهر بما يأتى من خير وشر . ولكن عيب هؤلاء المؤرخين انهم يقيسون دائما الزمن الماضى السحيق فى القدم بزمنهم ، غير مقدرين فروق الزمان والمكان . وبهذه النظرة عابوا على الاسلام مثلا اقراره الرقيق وتعدد الزوجات ونحو ذلك

ولم ينظروا الى الرقيق قبل الاسلام وما فعله الاسلام ، ولا الى تعدد الزوجات قبل الاسلام وبعده . كذلك لم ينظروا الى كل ظروف الرشيد وما يحيط به من شئون عائلية واجتماعية وغير ذلك . وقد كان الرشيد فى أيامه مثالا للملك الحاكم بأمره .. فيه مزاياه وفيه عيوبه . وما كان لأى رجل من رجال العصر الحاضر أن يفعل غير ما فعل ، لو عاش فى زمنه وتخلق بأخلاقه وأحيط بالبيئات التى أحاطت به

فلنأخذ الامور كما جرت ، ولنقسها بمقياس زمانها لا بمقياس زماننا نحن خصوصا واننا لم نسمع من الرشيد حججه فيما فعل . كما لم نسمع من البرامكة دفاعهم عن أنفسهم . وقد فعل أبو جعفر المنصور مثل ذلك فى أبى مسلم الخراسانى ، وهو الذى قامت الدولة العباسية بفضله وفضل أمثاله . وكذلك قتل وزيره أبا أيوب الموريانى . ووكل المهدى بمن سماهم الزنادقة ، وهى أمور خفية جدا

لا يعلمها الا الله والمتهم،وكثيرا ما يكون الشخص حرالتفكير نوعا ما فيتهم بالزندقة ويقضى عليه

نعم ان الخطأ لا يبرر الخطأ ٠٠ ولكن سقنا هذا لنبين أن ما فعله الرشيد بالبرامكة هو طبيعة العصر وسنة ذلك الزمان ، بل نجد فى عصرنا الحاضر أمثال ذلك٠٠ فقد نكل ملك فرنسا بالمسيو فوكيه ، ونكل هتلر باليهود ونحو ذلك كثير

على أن المؤرخين يروون عن الرشيد ندمه على فعلته وضيق صدره مما كان ، حتى ربما كان ذلك سببا من أسباب رحيل الرشيد بعد قليل من النكبة من قصر الخلد ببغداد الى الرقة بالجزيرة ٠٠ لئلا تقع عينه على مساكنهم ولا تثير الحزن فى نفسه المناظر التى كان يراها والمجالس التى كان يجلسها مع جعفر البرمكى ونحو ذلك ٠ يضاف الى سبب انتقاله ثورات الشام المتوالية ، وحاجته الشديدة الى القرب منها لسهولة قمعها

□

ولا شك أنه كانت من مزايا البرامكة أنهم تحملوا عبء الدولة كله عن الرشيد أيام كان غضا طريا لم ينضج بعد ٠ فلما نكل بهم كان فى سن ناضجة يستطيع أن يتحمل العبء الكبير الذى خلفوه ، فقد كان فى يدهم مناصب الوزارة ومناصب الجيش الكبرى والادارة فحمل الرشيد كل ذلك

وقد صمم الرشيد على قتل جعفر وسجن يحيى وبقية أولاده ، فصادر أموالهم الكثيرة ونكل بمن مدحهم أو ظل يمدحهم بعد نكبتهم الا القليل . وأصبحت هذه الأسرة أسرة بائسة ذاقت من البؤس والشقاء بمقدار ما ذاقت من النعيم والرفاهية

وتوفى يحيى وهو فى السجن .. ولحق به ابنه الفضل

المواليا

وكان مما يؤثر أنه فى عهد الرشيد ظهر نوع جديد من الشعر يقال له المواليا ، ظهر فى بغداد بعد الفتك بالبرامكة فقد ذكروا أن الرشيد لما قتل جعفرا البرمكى ، أمر أن لا يرثى بشعر . فرثته جارية له فى بيتين على وزن خاص وجعلت تنشدهما وتقول

يا مواليا يا مواليا الخ .. فلا كان شعرا ولا كان نثرا وهما :

يا دار أين ملوك الارض أين الفرس
أين الذين حموها بالقنا والترس

قالت تراهم رمم تحت الأراضى الدرس
سكوت بعد الفصاحة ألسنتهم خرس

وهذا النوع هو الذى تطور فيما بعد وتطور اسمه من مواليا الى مواويل جمع موال

الثورات فى عهد الرشيد

وقد تعددت الثورات فى عهد الرشـيد لاسباب مختلفة أوقعت الدولة أحيانا فى أزمات حرجة ، لولا حزم الرشيد وهمته ورجاله ٠٠ منها غيظ الروم من عظمة المملكة الاسلامية وتفوقها والاهتمام بدس الدسائس لاضعافها ، ومنها ميل الشاميين للدولة الأموية وحزنهم عليها وغضبهم من الايقاع بالأمويين ٠ وتمنيهم أن تعود السـلطة للعرب ، يدل على ما عرف عن الدولة العباسية من غلبة سلطان الفرس عليها ٠٠ حتى ليروون أن رجلا من الشاميين صرخ فى المأمون عند زيارته للشام ، يقول له : انظر الينا كما نظرت الى الفرس

ومنها الحزب العلوى الذى كان يكره العباسيين أشـد الكره بعد أن ضحك العباسيون عليه ثم تخلوا عنه

وقد ظلوا يحافظون على بيتهم ويتطلعون الى الحكم، وكلما مات امام مستتر أو قتل ، خلفه امام آخـر ينتظر للوقت المناسب

ومنها خروج الخوارج الذين ظلوا من عهد أن تكونوا فى عصر على، يحافظون على مذهبهم ويخرجون من حين الى آخر يودون تحقيق أمنياتهم واستيلاء أحد من رجالاتهم على الدولة فيقضى فيها بكتاب الله وسنة رسوله ولو كان عبدا حبشيا، لا يرضون عن أمويين ولا عن عباسـيين ، لانهم فى نظرهم كافرون أو على الأقل ظالمون٠ أسرفوا فى الشراب وأسرفوا فى النساء والغناء وما الى ذلك من بذخ ٠٠ فوجبت ازالتهم عن الملك وتولية من يصلح لهذا الغرض على مبادئهم

ومنها أن بعض البلاد البعيـدة رغبت فى الاستقلال عن

الخلافة وحكم نفسها بنفسها وعدم الخضوع للسيطرة العباسية عليها الى غير ذلك ٠٠

▭

كل هذا كانت تواجهه الدولة العباسية ٠٠ وبكلمة أوجز ما كان يواجهه الرشيد من حين الى حين ٠ فما نشبت ثورة وخمدت الا قام غيرها ، وبجانب ذلك كان الرشيد نفسه يريد أن يضعف الروم حتى لا يدسوا له الدسائس، فأنشأ مدينة تسمى العواصم للاعداد لغزو الروم منها ، وكان يدبر لهم غزوة فى الصيف تسمى الصائفة قد يقود جيشها بنفسه فيغنم الغنائم الكثيرة التى كانت تعد بابا كبيرا من أبواب الدخل ، وغزوة فى الشتاء تسمى الشاتية ونحو ذلك

فمن النوع الاول مثلا، ان ثار أهل الخزر فى أيام الرشيد بتحريض من البيزنطيين وعقدوا معهم شبه تحالف، وأغاروا على ارمينية وأفسدوا فى البلاد ، وأعملوا فيهم السيف ، ومثلوا بالسكان الآمنين على نحو لم يسبق له نظير فاضطر الرشيد أن يبعث اليهم حملات قوية تعاملهم بالقسوة والرعب فانتصروا عليهم وأخمدوا ثورتهم

ومن النوع الثانى ما قام به أهل الشام من ثورات متعددة ، ثورة بعد ثورة ، مما جعل الرشيد يفضل انتقاله من بغداد وسكناه فى الرقة كما ذكرنا

ومن النوع الثالث ما قام من ثورات علوية تريد الاستيلاء على الخلافة ٠ وقد ظهر فى أيام الرشيد الامام موسى الكاظم الذى سمى كاظما لصبره وكظم غيظه ودماثة خلقه ومقابلته

الاساءة بالاحسان . وكان محبوبا من جميع أهل المدينة ، فخشى منه الرشيد وأمر بالقبض عليه وأتى به الى بغداد ، وسلمه الى أخت السندى بن شاهك..وكانت امرأة فاضلة عاملت سجينها بالعطف والاحسان ، فظل مسجونا حتى توفى فى منزل سجينته وخلفه فى امامة الشيعة ابنه على الرضا وكان أعلم أهل بيته فى الفقه والآداب

ومن النوع الرابع ما ظهر من الوليد بن طريف الشارى الشيبانى ، وقد كان زعيم الخوارج فى أيامه ، وكان شجاعا فتاكا يقيم بنصيبين والخابور فخرج فى خلافة الرشيد فى حشد حاشد ، فأرسل اليه هرون يزيد بن مزيدالشيبانى، فظهر عليه يزيد وقتله

وكان للوليد هذا أخت تسمى الفارعة تجيد الشعر وتسلك سبل الخنساء فى مراثيها لصخر ، وقد رثت أخاها الوليد فى قصيدة من قصائدها بقولها :

فياشجر الخابور مالك مورقا
كأنك لم تجزع لموت طريف
فتى لا يحب الزاد الا من التقى
ولا المال الا من قنا وسيوف
حليف الندى ما عاش يرضى به الندى
فان مات لا يرضى الندى بحليف
فقدناك فقدان الشباب وليتنا
فديناك من فتياتنا بألوف
وما زال حتى أزهق الموت نفسه
شجى لعدو أو ندى لضعيف

ألا قاتل الله الحشـــا حيث أضمرت
فتى كان للمعـــروف غـــير عيوف

فان يك أرداه يزيـد بن مـــزيد
فرب زحـوف لفها بزحـوف

عليك ســـلام الله وقفـــا فانني
أرى المـــوت وقاعا بكل شريف

وكان الوليد يوم الوقعة ينشد :

أنا الوليد بن طريف الشارى
قسورة لا يصطلى بنـــارى
جـوركم أخـــرجنى من دارى

وقد تزعمت الفارعة حركة الثوار بعد مقتل أخيها وتولت القيادة بنفسها ، واشتبكت مع جيش الرشيد فى معركتين داميتين حتى نهرها أحد أقاربها٠٠ فأمرها أن تلقى السلاح وتعود الى خدرها ، وكانت وسيمة الطلعة رشـيقة القوام أديبة ظريفة ، تحفظ الشعر وتقوله ٠٠٠

ومن النوع الخامس ان بلاد تلمسان بالمغرب أرادت أن تنفصل عن الدولة العباسية فثارت وحملت الدولة مبـالغ طائلة لاخضـاعها وكانت مصر تدفع نحو مائة ألف دينار ســنويا من ايرادها الخاص لسد عجز حكومة أفريقيا حتى تمكن ابراهيم بن الاغلب من الاتفاق مع الرشيد على تهدئة الثورة وتحمل المبلغ الذى تدفعه مصر ٠ وتقديم أربعين ألف دينار سنويا الى حكومة بغداد

ومن النوع السادس ، ان الرشيد كان يهتم أكبر اهتمام بالروم خصوصا بعد أن أخلوا ســنة ١٨٠ بشروط الهدنة

التى كانت ايرينى قد عقدتها مع المنصور . اذ أغاروا على البلاد الاسلامية فبعث اليهم الرشيد من هزمهم واستولى على مدينة لهم بقرب أنقرة وعلى أنقرة نفسها . وأعاد احتلال قبرص بعد أن خرجت من أيدى المسلمين .. وألزم الروم بدفع الجزية وتبادل الأسرى. ولكن نقفور ملك الروم كتب الى الرشيد فيما يرويه مؤرخو المسلمين رسالة غير مؤدبة يقول فيها :

« من نقفور ملك الروم الى هرون ملك العرب

« أما بعد .. فان الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق . فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أمثاله اليها. ولكن ذلك ضعف النساء وحمقهن . فاذا قرأت كتابى ، فاردد ما حصل قبلك من أموالها . وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك .. والا فالسيف بيننا وبينك »

فغضب الرشيد من هذا الكتاب غضبا شديدا حتى لم يجرؤ أحد على النظر اليه من غضبه.. وكتب اليه كتابا غير مؤدب أيضا ـ والبادى أظلم ـ يقول فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ـ من هرون الرشيد الى كلب الروم

« قد قرأت كتابك ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه »

وقد بر الخليفة بايعاده وشخص بنفسه على رأس جيشه، حتى وصل الى « هرقلة » احدى البلاد البيزنطية . فدارت بين الفريقين معركة حامية أسفرت عن هزيمة الروم هزيمة منكرة . وقد تبين من هذه الحروب ان الفنون الحربية عند

المسلمين كانت أرقى منها عند الروم · وتوسل نقفور الى الرشيد أن يقبل منه جزية أكثر من تلك التى قبلها من ايرينى · فأجابه الخليفة الى ذلك – وقد كانت تنشأ ثورات أخرى منشؤها محاولة ارجاع الدولة العباسية الى عهد الفرس الماجد الزاخر · وهذا داء قديم

وكثير ممن اتهموا بالزندقة وقتلوا عليها فى عهد المهدى كانوا أشخاصا حاولوا مثل هذه المحاولة · وكانت ثورات سياسية ·· انما صبغت بالصبغة الدينية لاستمالة الرأى العام · وقد اتهم البرامكة بمثل هذه التهمة بجانب التهم التى عددناها · وذلك مثل ثورة الخرمية فى طبرستان ·· فقد تحركوا بناحية اذربيجان تدعوهم الى ذلك القومية على ما يظهر ، فوجه اليهم الرشيد عبد الله بن مالك فى عشرة آلاف فارس فأسر وسبى حتى انتهى أمرهم

الشعر والغناء

مجالس الرشيد

على كل حال لم يخلد اسم هرون تلك الحروب ولا الانتصارات ، وانما خلدته مجالس الأدب والعلم ومجالس الغناء

نعم ، قال أبو تمام : « السيف أصدق أنباء من الكتب»، وقد يكون ذلك كذلك،ولكن لسان الكتب أطول وأدوم،وانما كان سبب خلوده الاسباب التي ذكرناها من قبل،وهي أن الرشيد من حسن حظه أن جاء والمدنية الاسلامية قد بدأت في النضوج،وتم نضجها فيما بعد في عهد المأمون ، فكانت مدنية عظيمة تفوق مدنية الاوربيين في ذلك العهد ، فتدفقت الأموال على بغداد ، وازدهرت التجارة بطرف الدنيا ، والعلوم والفنون بشتى أنواعها مزدهرة ، لم يجتمع على أحد غير الرشيد ما اجتمع من أهلها ، وبيت المال يتكدس بالمال ، والرشيد يغدق بغير حساب ، ومجالس الغناء يزينها ابراهيم بن المهدى واسحاق النديم وابراهيم الموصلى ، والنصارى مثل جبريل بن بختيشوع ، يمهرون في الطب وينشرون كثيرا من الفلسفة اليونانية ، اذ كان الطب أحد فروعها . ويهتم الخلفاء من عهد المنصور بعلم الفلك لاعتقادهم أن حوادث الدنيا متأثرة بحركات النجوم ، ويشتهر في ذلك أمامان عظيمان : ما شاء الله اليهودى وأحمد بن محمد

النهاوندى . والفقه يعظم فى ذلك العهد على يد أبى يوسف، ومحمد صاحبى أبى حنيفة .. وتؤلف الكتب على هذا المذهب وتنتشر فى الأمصار . واللغة تقيد فى عصره فيؤلف الخليل بن أحمد البصرى المعجم ويضع أصول اللسان العربى وأصول تصريف الكلمات . ويتوسع فى ذلك بعد الكسائى مؤدب الأمين فالمأمون . وسيبويه النحوى المشهور . ويضع أبو عبيدة معمر بن المثنى كتابا فى فقه اللغة فى المترادفات وكيفية استعمالها فى مواضعها والحركة بين البدو والحضر حركة قوية شديدة . يأتى البدو الى الحضر فيأخذ عنهم الحضريون لغتهم وشعرهم وأدبهم ويرققون أشعارهم ، ويخرج الحضريون الى البدو فيأخذون عنهم ذلك

وارتفعت بلاغة الشعر فى مثل على بن الجهم، وأبى نواس، وأبى العتاهية .. وحتى النساء كن يقلن الشعر كما روينا من قبل عن الفارعة .. حتى اذا أنصفنا حكمنا بأن الشعر الحضرى الذى روى لنا فى عهد الرشيد وأمثاله كان أرقى من الشعر الجاهلى ، والفرق بينهما كالفرق بين قول امرىء القيس ، اذ يقول :

تقول وقد مال الغبيط بنا معا
عقرت بعيرى يا امرىء القيس فانزل

وقول على بن الجهم :

فبتنا جميعا لو تراق زجاجة
من الخمر فيما بيننا لم تسرب

وكان كثير من الشعراء يلازمون الرشيد كالذى حكى عن

أبى العتاهية انه كان لا يفارقه فى سفر ولا حضر . وكان ينتصح الرشيد بشعره ويبكى من مواعظه كقوله :

كأن كل نعيم أنت ذائقه
من لذة العيش يحكى لمعة الال

ومن الناحية الاخرى كان مثل أبى نواس على عكس مذهب أبى العتاهية ، يتغزل فى الذكور والنساء والزهر والخمر . فكان يذكر فى شعره ابليس والخمر كما يذكر أبو العتاهية فى شعره الجنة والنار ، كالذى يقوله أبو نواس :

وليلة طال سهادى بها فجاءنى ابليس عند الرقاد

وقوله :

هل لك فى قهوة معتقة عتقها العاصر من عهد عاد

وقوله :

رق الزجاج وراقت الخمر وتشابها فتشاكل الأمر
فكانما خمر ولا قدح وكانما قدح ولا خمر

الى كثير من أمثال ذلك ..

والرشيد يستجيب لنصح ذاك وتهتك هذا .. ولامعان الناس فى عهد الرشيد فى الشراب فلسفوه وأكثروا القول فيه ، حتى لم يقل شعراء فى لغة ما قالوه فى هذا العصر . وتفننوا فيه فأخذوا لونا من الشراب من الروم ، وهو خمر ممزوج بالعسل، ونقلوا اسمه الرومى - وهو الرساطونى - ولم يأتمروا بأمر الاسلام ، اذ يقول : « انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون »

ومن أجل الهروب من هذا الأمر أخذوا يتفننون فى

الاسئلة . ما المراد بالخمر؟ : أهو يشمل النبيذ أو لايشمله؟ وما القدر الذى يحل والذى يحرم ، وما النوع الذى يحرم، وما النوع الذى يحل ؟

ويظهر ان الامام أبا حنيفة كان يتبع عبد الله بن مسعود فى تحليله لنبيذ التمر والزبيب اذا طبخ أو فى شرب قدر منه لا يسكر ، وكذلك نبيذ العسل والتين والبر

وأخذ الشعراء يتفكهون فى شعرهم بحرمة الخمر كالذى قال :

من ذا يحرم ماء المزن خالطه   فى جوف خابية ماء العناقيد
انى لاكره تشديد الرواة لنا   فيه، ويعجبنى قول ابن مسعود

وقد اشتهر بينهم ان الفقيه الحجازى يحرم النبيذ والفقيه العراقى يحلله ، ولذلك قال شاعرهم :

رأيه فى السماع رأى الحجاز   وهو فى الشرب رأى أهل العراق

ويقول آخر :

أباح العراقى النبيذ وشربه   وقال حرامان المدامة والسكر
وقال الحجازى الشرابان واحد   فحل لنا من بين قوليهما الخمر
سآخذ من قوليهما طرفيهما   وأشربها لافارق الوازر الوزر

وطائفة أخرى لا تحب أن تتحمل أو تتمحك ، فاما أن يتركوها تركا تاما أو يهجروها هجرا تاما

قال أبو نواس :

فان قالوا حرام قل حرام   فان لذاذة العيش الحرام

ويقول :

الا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر
ولا تسقنى سرا اذا أمكن الجهر

وهكذا أصبح النبيذ والخمر أمرين شائعين بين النـاس لا يخلو منهما بيت من بيوت العظماء والاغنياء

وتسربت عوائد الفرس والروم والعرب الى الناس ٠٠ وكان من ذلك كله أدب غزير فى الخمر وأوصافها والندمان وأوصافهم وعيوبهم ومحاسنهم ، حتى ملأ الأدب العربى وحتى ان الصوفية كابن الفارض وغيره قلدوا الماجنين فى قولهم فى الشراب وغزل المذكر وغزل المؤنث ، وان لم يكن هناك خمر ولا نساء ولا ذكر

ابراهيم الموصلى

وبجانب الشعر الغناء ٠٠ جاءت طبقة من المغنين أخذت أصول الغناء عن ابن سريج وابن محـــرز المكيين ، ومالك ومعبد المدنيين ، واشترك النساء فى الغناء ، وغنين الغناء العربى والفارسى ٠ ووجدت مدارس للغنـــــــاء تتناحر وتتسابق وقد شجع البرامكة الغناء الفارسى ، والى جانب الغناء الرياضة ، وهناك القصص اللطيف الذى يحكى أمور الماضـين والحاضرين ويســجل أحداثهم ٠ ولم يقف فى التاريخ عند حد الروايات عن الماضين ، فقد ركبوا البحار ودونوا الرحلات وأدخلوا فى التاريخ ماشاهدوه وما سمعوه وكما اشتهرت بغداد أم الحضارة بهذه الاشياء كلها ، كانت دمشق ومصر صورة مصغرة

ولم يكتف الأمر بهذا ، بل أفسحوا صدورهم اعتزازا بمدينتهم الى الوفود تأتيهم من الروم وغير الروم ٠ يعجبون بما يرون من حضارة لا قبل لهم بها ويذهبون الى بلادهم

فيتحدثون بما شاهدوا وما سمعوا ويقلدون ما يستطيعون تقليده ، وقد روى التاريخ كلمات كثيرة عن القساوسة والمستشرقين يحضون قومهم على أن يفعلوا فعل المسلمين

□

هذه ، لا الحروب ولا الانتصارات ، هى التى أعلت شأن الرشيد فى نظر الشرقيين والغربيين ، وخلدت ذكره وأعلت مقامه وجعلته على كل لسان . فقد نقل اليهم كتاب بطليموس وأقليدس وعربت رسائلها . ولم تكن دراساتهم لها نظرية بحتة ، بل كانت تطبق عمليا : مثل البوصلة البحرية التى مكنتهم من السير فى البحار والمهارة فى التجارة ، حتى ساروا الى سواحل الهند وجزيرة الملايا ، وتوغلوا فى بلاد الصين وصارت البصرة ثغرا تجاريا هاما . وكالساعة الدقاقة التى اخترعها العرب ، ويصفونها بأنها كانت اذا جاء موعد الساعة دقت وخرج منها رجال على الخيل بعدد الساعات ، فاذا انتهت الدقات دخل الخيالة

وكان مما خلد الرشيد ، مجالسه المتنوعة المتعددة . فمجلس غنائه كان عماده ابراهيم الموصلى، ثم من بعده ابنه اسحاق وزلزل الدفاف وبرسوم الزامر . وابراهيم الموصلى هذا كان زينة مجلس الرشيد واطار الشخصيته كما تصوره لنا ألف ليلة وليلة . وهو فارسى الأصل أبا وأما ، رزقه الله حسن الصوت على خير ما يرزق المغنيين فى جميع العصور . ورزق الى حسن صوته جودة انشائه للشعر وحسن تلحينه يروى عنه انه أنشأ ولحن وغنى قوله :

ربما نبهني الاخـــو ان والليـــل بهيـــم
حين غـــارت وتدلت في مهاويهـا النجـوم
ونعاس الليـل في عيـــنني كالشـاوي مقيـم
للتي تعصر لمـــا أينعت منهـا الكـروم
أنا بالـــرى مقيـــم في قـرى الرى أهيـم
ما أراني عن قرى الـرى مدى دهـرى أريـم

وكان من أصل فقير هرب من فارس ونشأ يتسكع في البلاد . وكان في كل بلد طائفة من الشبان الخليعين لا ميل لهم الى الجد ، يقضون حياتهم في شراب ونساء وغناء ، وقد شهروا بالمروءة والنجدة خصوصا اذا نزل عليهم ضيف من أمثالهم

وهؤلاء الطائفة تسمى « الفتيان » وهي كالتي نسميها اليوم بالبوهيميين ، وذلك قبل أن تتطور كلمة «الفتيان» الى المعنى التركي ، فتأخذ شكلا دينيا وشكل اتحاد عمال معا . وقبل أن يتخذها الصوفية في لغتهم فيطلقونها على جماعة الصوفية المتدينين ذوى المروءة

واشتهر ابراهيم بينهم بحسن الصوت فأعجبـوا به ، وكان في احدى مراحله بالموصل فسمى «ابراهيم الموصلي» ، ثم ذاع ذكره وحسن تلحينـــه وغنائه ، فاستدعاه الخليفة المهدى . ولكن كان به آفة وهي انه كان لا يكاد يفيق كزملائه الفتيان . والمهدى لم يكن يشرب ولا يحب الشـاربين الا ما كان أجازه لجبريل بن يختيشوع اذ كان لابد أن يشرب . والمهدى لا يستطيع الاســتغناء عنه فأباح له أن يشرب هو . فطلب المهدى من ابراهيم الموصـــلي ألا يشرب فلم

يستطع ، ووجدت عقدة فى بيت المهدى وهى أن فى البيت ابنين وهما الهادى والرشيد ، ويخاف عليهما الانغماس فى الشراب ويخاف عليهما من مخالطة الموصلى . ويخاف أن يجتمع عليهما حسن شعر الموصلى وحسن تلحينه وحسن غنائه،منضما ذلك كله الى شباب الهادى والرشيد وغناهما وترفهما ، فاذا هما سكيران لا يصلحان للخلافة

ورعب من تلك النتيجة التى تخيلها بحق ، فأخذ الايمان الموثقة على ابراهيم الموصلى ألا يشرب بحضرة الهادى والرشيد . وكيف ينفع التحذير وكل العوامل ممهدة لهذه النتيجة .. جاذبية الموصلى وقابلية الهادى والرشيد لهذه الجاذبية ..

فأتت الجواسيس المهدى يوما تقول : انه غناهما وفتنهما فشربا معا ، فجن جنون المهدى من هذه الفعلة خصوصا بعد أن استوثق منه . فضربه ضربا مبرحا ، ثم نهاه ، ثم عاد فأقصاه من القصر ووضعه فى السجن وأمر بتعذيبه فيه تعذيبا شديدا . ولكن كان من حسن حظه أن مات المهدى وجاء الهادى الذى حبس الموصلى من أجله، فاستنجد به ، فأنجده ومنحه الهادى مالا كثيرا حتى أصبح ثريا ، واتخذه نديما له حتى مات

مدرسة الموصلى

وبلغ الموصلى ذروته فى عهد الرشيد .. فقد كان الرشيد أحب للموصلى وأحب لغنائه فقربه اليه وجعله زينة مجلسه. وصار يتكسب من الرشيد ومن مدرسة أخرى اهتدى

اليها، وهوانه كان يأتى بالفتيات الجميلات فيعلمهن التلحين ويعلمهن الغناء . وأقبل الناس على تلميذات مدرسته اقبالا شديدا اذ كان قد اجتمع لهن جمال الشكل وجمال التلحين وجمال الصوت

وكان الناس قبله يعلمون الفتيات غير الجميلات حرصا على الفتيات الجميلات وتنحية لهن من هـــذا المأزق ، فجاء الموصلى بحسن ذوقه فأدرك ان تجارته لن تروج الا اذا علم الفتيات الجميلات . فدر ذلك عليه مبلغا من المال طائلا ، وقد نجحت مدرسته نجاحا باهرا .. فانتشرت تلميذاته فى بيوت الاغنياء من أمراء وتجار ، فكنت اذا مشيت فى شوارع بغداد أو فى شوارع المدن ، سمعت أصـــواتهن تتجاوب فى كل مكان

□

وشىء آخر عظيم الفائدة ، كان أيضا من برنامج مدرسته يعلمه فى جد واتقان وهو فن الظرف . وهـــذا فن واسع ربما يمثله خير تمثيل « كتاب الوشاء » وان كان قد ألفه بعد ذلك العهد بقليل ...

فكان يعلمهن درســـا فى ألوان الملابس ومناســـباتها للحفلات ومناسبة بعضها لبعض ومناسبتها للنعـــال . ودرسا ثانيا فيما يصلح أن ينقش على الخواتيم والفصوص، ودرسا ثالثا فى التعطر والتطيب ، ودرســـا رابعـــا فى تصفيف الموائد والاطعمة وكيفية الأكل، من وجوب تصغير اللقم ، والتحـــرز من الشره ، وعدم تلطيخ الاصابع وعدم

تجاوز ما بين أيديهن ، وعدم افساد رائحتهن بأكل الثوم والبصل ونحو ذلك • وعدم التخلل على المائدة قبل أن تفرغ ونحو ذلك

ودرسا خامسا فى الزهور والورد وكيف تنظم الطاقات، ثم ينتقل فى الدروس الأخيرة من الماديات الى المعنويات : فكيف يتحدثن فيحسن الحديث، وكيف يجب أن لا يداخلن أحدا فى حديثه ، ولا يتطلعن الى مكتوب يقرؤه قارىء ، ولا يقطعن على متكلم كلامه ، ولا يحاولن أن يستمعن الى أحد يتحدث فى سر ، ولا يسألن عما ورى عنهن علمه ، ولا يتكلمن فيما حجب عنهن فهمه ، ولا يتثاءبن فى المجلس ، ولا يتمطين ، ولا يمددن أرجلهن ، ولا يمسسن أنوفهن بأيديهن • ثم يعلمهن انهن اذا أهدين أهدين الشىء اللطيف الخفيف كالتفاحة المنقوشة الواحدة والاترجة الواحدة، والغصن من الريحان والطاقة من النرجس ونحو ذلك • ويعلمهن أيضا كيف يكتبن الكتب الظريفة لمن يحببن أو لمن يشكون ونحو ذلك، وكيف ينقش على قمصانهن وارديتهن وأكمامهن وعصائبهن ومناديلهن ونعالهن ، وما يكتبنه بالحناء على راحتهن وأبدانهن ، وما ينقشنه على أوانى الفضة والذهب والكاسات والاقداح وعلى آلات الموسيقى من العيدان والطبول والدفوف والنايات

وعلى الجملة ، فكان يعلمهن قوانين الظرف ، بجانب قوانين الغناء ، ويعلمهن ما نسميه اليوم « بالاتيكيت » • ويؤلف فيه المسلمون قبل ما يؤلف فيه الغربيون اليوم بعد أكثر من ألف سنة • وكان له فى ذلك فضلان : فضل نشر

الغناء فى العالم الاسلامى ، ونشر طرق الاتيكيت ٠وكانت هذه الاشياء كلها تغلى ثمن الجارية أضعاف ما كانت ، وبفضل هذه المدرسة فاقت العراق الشام والحجاز ٠ فقد كان الشام مركز اللهو والظرف فى عهد الأمويين

أما فى العهد العباسى ففاقته العراق ٠ والسبب فى ذلك أمران : الأمر الاول ان العراق كان مصب أموال الدولة فكل قطر يبعث للخليفة ما تبقى من الصرف عليه٠ والمال هو عصب الحياة يتبعه اللهو حيث كان ٠ فالغناء والشراب انما يكونان حيث يكون الترف ٠ والترف يكون حيث يكون المال ٠ والعراق أكثر البلدان وأعزها جاها ٠ وكل نابغ فى فن ومنه الأدب انما تنفق سوقه فى العراق٠ ومن نبغ فى غيره ولم يذهب اليه ، خمد ذكره وضاع فنه٠ فأى مغن مشهور لم يكن فى العراق ، وأى نابغة فى الشعر لم يكن فى العراق ، وأى لؤلؤة كبيرة أو ياقوتة عظيمة أو عقد مرصع بديع لم يرسل الى الخليفة فى بغداد

والأمر الثانى ان العراق كان أكثر بلاد الله خليطا ٠ فقديما تعاقبت عليها الأمم والمدنيات ٠ وفى العصر العباسى كان حاضرة الخلافة ومقصد الناس ٠ وكان مسكن العنصر الارستقراطى من الفرس وعلى مقربة من بغداد ايوان كسرى، وبغداد محط الراحلين من الهنود والعرب والروم وغيرهم٠ وكل جنس من هذه الاجناس يعرض خير ما عنده وان أدركت سائر الأقطار طرفا من زينة ولهو وغناء وشعر فمن بغداد تقتبس

وكان من حسنات ابراهيم الموصلى زرياب المغنى ٠ فقد

كان تلميذا لاسحاق • وكان يحضر معه مجلس الرشيد ثم اختلف معه ففر الى الاندلس • وكانت سبقته شهرته اليها، فاستقبل فيها استقبالا حسنا • ولم يكن زرياب مغنيا فقط • بل كان عالما أديبا أيضا • فنشر فى بلاد الاندلس موسيقاه التى تلقاها عن ابراهيم الموصلى وعلمه فنه •فكان أيضا من حسنات الرشيد بالوساطة

وزان زرياب مجالس عبد الرحمن الداخل كما زان أستاذه الموصلى مجالس الرشيد ، واجتهد زرياب أن يجعل من قرطبة ما رآه فى بلاط الرشيد فى بغداد من فخفخة وعظمة • وأن يحمل عبد الرحمن على البذخ والترف كما كان الرشيد وينقل حضارة بغداد الى قرطبة • فنجح فى ذلك الى حد كبير لأنه كان عظيم الشخصية ، وقد أجرى عليه عبد الرحمن الداخل ثلاثة آلاف دينار فى السنة • وأعطاه عقارا بقرطبة قيمته أربعون ألف دينار • وقربه اليه وجعل مرتبته مرتبة عظيمة

وقد قالوا عنه انه كان يعرف عشرة آلاف لحن بأشعارها ونغماتها • ولم يقتصر على الغناء والشعر • بل كان يعلم الفلك والجغرافيا • وكان قد أخذ عن أستاذه الموصلى فن الظرف واللباقة الذى كان يعلمه الموصلى فى بغداد للجوارى الحسان • ونشر أيضا الذوق فى قرطبة وغير من زى الرجال • فقد كان الرجال يرسلون شعورهم طويلة ويفرقونها فى مقدم الرأس فابتدع لهم طريقة جديدة • فأصبح الزى الرائج بعده أن يحسر الرجل شعره بعد أن يقصره • وكان الاندلسيون يشربون الماء بآنية معدنية ،

فعلمهم أن يشربوه بأقداح من زجاج . ونشر فى الاندلس نوعا من الطعام كان محببا اليه هو الهليون . وابتدع أيضا أنواعا من الاطعمة اللطيفة تنسب اليه : منها النوع المعروف بالزريابية .. فلعله هو الذى حرفه العوام فيما بعد الى زلابيا

□

وعلى الجملة ، فقد كان من حسنات الرشيد وان لم يعلم نقل حضارته ومجالسه . وترفه الى الاندلس بوساطة زرياب ..

وكان الموصلى كما قلت بلدى البرامكة يغنيهم كما يغنى الرشيد ، ويضع الاصوات فى مدحهم مثل قوله :

ويفرح بالمولود من آل برمك
بغاة الندى والسيف والرمح والنصل

وتنبسط الآمال فيه لفضله
ولا سيما ان كان من ولد الفضل

ولا يبعد أن يكون أبو اسحق الموصلى بحكم بلديته للبرامكة ، كان ينقل اليهم ما كان يدور فى مجلس الرشيد مما يتصل بهم من قريب أو بعيد . ولكن الرشيد أبقى على رأسه لما طاح برؤوسهم ، لانه لم يكن يتدخل فى سلطة الرشيد ولا سلطة البرامكة ، ولان الرشيد كان فى حاجة اليه اذ كان لا يستغنى عن صوت جميل ولحن جميل ، وليس للموصلى فى ذلك نظير

وعلى الجملة ، كان للرشيد ذوق مرهف فى سماع الغناء

ونقله . حتى ليحكون انه سمع الموصلى مرة فقال له انك اخطأت فى لحنك مرتين .. فعجب الموصلى من ذلك وخرج يتحدث به . وكان مما عرف عنه انه أمر بأن يختار له مائة صوت « لحن » أو « دور » وهى التى بنى عليها أبو الفرج الاصفهانى كتابة الاغانى . ثم أمرهم أن يختاروا منها عشرة . ثم أمرهم أن يختاروا من العشرة ثلاثة . فكانت هذه الثلاثة لحنا لمعبد، ولحنا لابن سريج ، ولحنا لابن محرز

الأصمعي وأبو عبيدة

ومجلس آخر هو مجلس جد ولغة وشعر يكون عماده الاصمعى وأبا عبيده والكسائى . فأما الأصمعى فكان رجلا عربى الأصل محتفظا بعربيته فى ملبسه ونبرات صوته ، وقد رحل الى البادية وسمع من أهلها لغة وأدبا ، وعلى الأخص « ملحا » ونوادر ، فكان يتخير منها ما يناسب مجلس الرشيد ويتحدث اليه،ويسأله الرشيد عما يجهله، ويسمع منه ملحه ونوادره ، ويتفقده الرشيد حين يغيب عنه .

وأما أبو عبيدة فيهودى الأصل ليس له خفة روح الأصمعى ولا ملحه ولا نوادره ، وانما كان له مهارة فى ناحية أخرى يمتاز بها وهى معرفته بأخبار الأمم من عرب وغيرهم . وكان يسر الرشيد بذكره مثالب بنى أمية . هذا الى علم باللغة واسع وان لم يبلغ مبلغ الأصمعى . سأله الفضل بن الربيع يوما : « كيف يعبر الله سبحانه عن شيء لم تعرفه العرب ولم تره ، اذ قال : « طلعها كأنه

رؤوس الشياطين » . فقال ان العرب اذا عرفت شيئا ولو لم تره ذكرته فى كلامها ، كالشاعر الذى يقول: «ومسنونة زرق كأنياب أغوال »

والغول شيء لم تره العرب . ثم وضع كتابا فى مجاز القرآن

وأما الكسائى فقد تعوده الرشيد من صغره اذ كان هو مربيه وكان فارسى الأصل ، عربى الولاء ، ويمتاز عن الأصمعى وأبى عبيدة بالنحو . وكان النحو فى أيامهم واسع المدلول فهو يشمل الصرف والمعانى والبيان والبديع ونحو ذلك ، ويظهر انه كان جادا كل الجد ليس كالأصمعى مرحا كل المرح،ولم يكن له علم بالشعر كالذى للأصمعى. فكان الأصمعى يغلبه فى الشعر والكسائى يغلبه فى النحو

□

ولقد كانت مجالسهم مجالس جد من لغة ونحو وأخبار وما الى ذلك ، وقد استفاد الرشيد كثيرا من علمهم ونحوهم

ومجلس آخر كان عماده الشعر يجلس فيه أبو العتاهية وأبو نواس ومنصور النميرى ومسلم بن الوليد وأمثالهم، فينشدون له الشعر أحيانا فى مديحه ومدح آبائه الى نحو ذلك

وهو يتخذهم دعاية له ومظهر ترف وأبهة ويجزل لهم العطاء بقدر ما يجزلون له من الثناء

وأحيانا يكون المجلس مجلس فقه ومحاولة لخروج من مأزق من مآزق القصر ، حول جارية أو حول مشادة بينه وبين زبيدة .. وعماد ذلك أبو يوسف القاضى . كالذى روى أن أميرا من أمراء البيت العباسى اشترى جارية جميلة فطلبها منه الرشيد ، فحلف بالايمان المغلظة أن لا يبيعها. وحلف الرشيد أيضا الايمان المغلظة أن يشتريها وتحرج الأمر بينهما

فاستدعى أبا يوسف فحل الاشكال ، بأن يهب الأمير نصفها للرشيد ويشترى الرشيد نصفها الآخر فكان ذلك. وكان واسع العلم ، متفنن الحيلة لبقا مما جعل الرشيد يعينه قاضى بغداد ، وهذا يجعله قاضى القضاة فينتشر بذلك مذهب أبى حنيفة شيخ أبى يوسف

تنظيم الضرائب

وكان الى جانب ذلك يهديه الى نظم الضرائب وهو الذى وضع له كتاب الخراج ، فنظم له فيه الضرائب وكيف يجيبها . وذكر الرشيد فى أول كتابه هذا ، وقدمه له مع نصائح حكيمة وقورة مثل ما يخاطبه به فيقول : «لا تؤخر عمل اليوم الى غد .. فانك ان فعلت ذلك أضعت » و « ان الأجل دون الأمل .. فبادر الاجل بالعمل ، فانه لا عمل بعد الاجل » : « ان الرعاة مؤدون الى ربهم ما يؤدى الراعى الى رعيته . فأقم الحق فيما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهار ، فان أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة ، راع سعدت به رعيته ، و « لا تزغ فتزيغ رعيتك » . « واياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب » . « واذا نظرت الى أمرين

أحدهما للدنيا والآخر للآخرة فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا ، فان الآخرة تبقى والدنيا تفنى » • « وكن من خشية الله على حذر • واجعل الناس عندك فى أمر الله سواء القريب والبعيد ولا تخف فى الله لومة لائم ، واحذر فان الحذر بالقلب وليس باللسان »

▭

ويذكر أبو يوسف أن رجلا نصرانيا كان يأتى الحسن البصرى ويغشى مجالسه فمات • فسار الحسن الى أخيه ليعزيه فقال له : «أثابك الله على مصيبتك ثواب من أصيب بمثلها من أهل دينك ، وبارك لنا فى الموت وجعله خير غائب ننتظره •• عليك بالصبر فيما نزل بك من مصائب ، وهكذا نرى فى ثنايا الكتاب دررا غالية ونصائح عالية

ومثل : « يا أمير المؤمنين ان الله وله الحمد قد قلدك أمرا عظيما ثوابه أعظم الثواب ، وعقابه أشد العقاب • قلدك أمر هذه الأمة فأصبحت وأمسيت • وانت بغية لخلق كثير قد استرعاكهم الله وائتمنك عليهم وابتلاك بهم وولاك أمرهم • وليس يلبث البنيان اذا أسس على غير التقوى أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه وأعان عليه • فلا تضيعن ما قلدك الله من أمر هذه الأمة والرعية • فان القوة فى العمل باذن الله »

والكتاب ليس مقصورا على الضرائب •• ففيه مثلا نصائح متعددة غالية كحسن معاملة الاسارى،وانه اذا أمن المحارب لم يؤخذ منه شىء ، وكالامر بحسن معاملة اليهود

والنصارى . وان أبا يوسف سأل أبا حنيفة عن اليهودى أو النصرانى يموت له ولد .. فهل يعزى ، وبم يعزى ، فقال : « نعم يعزى ، ويقال له ان الله كتب الموت على خلقه . نسأل الله أن يجعله خير غائب منتظر . وانا لله وانا اليه راجعون . عليك بالصبر فيما نزل بك لا أنقص الله لك عددا »

وكان على باب قصر الخلد حجرة واسعة يجلس فيها الشعراء والمغنون والفقهاء ، تدور بينهم الاحاديث المختلفة فى الموضوعات المختلفة ، وجميعهم ينتظر دعوة الحاجب لطائفة منهم حسب مزاج الرشيد فى وقته وحسب مايعرض له من أحداث . وأحيانا لا يجد الحاجب من يطلبه فى هذه الحجرة فيذهب اليه فى بيته

واذ كان الرشيد حاكما بأمره فهو أحيانا يرضى لا الى حد وأحيانا يغضب لا الى حد . فكان من دعى يغتسل ويتكفن قبل ذهابه اليه ، مما يعطينا صورة سيئة للحكام فى هذا العهد

مجلس العظة والاعتبار

ومجلس آخر يرجع فيه الرشيد الى نفسه ويدعو من يعظه أو يذهب اليه اذا كان الواعظ لا يغشى مجالس الأمراء ، كالذى روى انه استدعى ابن السماك الواعظ المشهور ، فلما دخل عليه قال له : « عظنى » ..

فقال : « يا أمير المؤمنين .. اتق الله واحذره . لا شريك له . واعلم انك واقف غدا بين يدى الله ربك . ثم مصروف

الى احدى منزلتين لا ثالثة لهما ، جنة أو نار »

فبكى هرون حتى أخضلت لحيتـــه ٠٠ فأقبل الفضل بن الربيع على ابن السماك ، وقال : «سبحان الله ٠ هل يخالجك شك فى ان أمير المؤمنين مصروف الى الجنة ان شاء الله ٠ لقيامه بحق الله ، وعدله فى عباده »

فقال: «يا أمير المؤمنين: انهذا - يعنى الفضل بن الربيع - ليس والله معك ولا عندك فى ذلك اليوم ٠ فاتق الله وانظر لنفسك » ، فبكى هرون حتى أشفق الموجودون عليه

وافحم الفضل بن الربيع ، ولم ينطق بحرف حتى خرج من بحضرته ٠ ويأتى الرشيد الفضيل بن عياض ، فيفتح له الباب هو والفضل بن الربيع ٠ ثم يصعد الفضيل الى أعلى الغرفة مسرعا ويطفىء السراج ٠ ويتجه الى زاوية من زوايا الغرفة فيبحث عنه الرشيد حتى يجده ٠ فيقـــول الفضيل وقد جس يده : « ما الينها من يد أن نجت غدا من عذاب الله » ٠ ثم يسأله : « لم جئت ٠٠ لقد حملت عـــلى نفسك وجميع من معك حملوا عليك ٠ ولو سألتهـم عند انكشاف الرقاب عنك وعنهم أن يحملوا عنك نقصا من ذنب ما فعلوا ولكن أشدهم حبا له أشدهم هربا منك »

ثم قال ان عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة دعا سالم ابن عبد الله بن عمر ، ومحمد بن كعب القرظى ، ورجاء بن حيوة، وقال لهم : « انى قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا على ٠٠ فعد الخلافة بلاء ، وعدتها أنت وأصحابك نعمة ٠فقال له سالم : « ان أردت النجاة غدا من عذاب الله فصـم عن الدنيا وليكن افطارك فيها على الموت » ٠ وقال له محمد بن

مطعم : « ان أردت النجاة غدا من عذاب الله ، فليكن كبير المسلمين لك أبا ، وأوسطهم لك أخا ، وأصغرهم لك ولدا. فبر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك »

وقال له : « رجاء ، ان أردت النجاة غدا من عذاب الله . فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك » . فبكى هرون الرشيد بكاء شديدا حتى غشى عليه .. فقال الفضل بن الربيع : « ارفق بأمير المؤمنين» . فقال الفضيل: « يا بن الربيع قتلته انت وأصحابك وأرفق أنا به » . فلما أفاق قال : « زدنى » ..

فقال : « يا أمير المؤمنين .. بلغنى ان عاملا لعمر بن عبد العزيز شكا اليهالسرف فكتب اليه عمر يقول :«يا أخى اذكر سهر أهل النار فى النار وخلود عباد الله فيها».فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه . فقال له عمر : « ما أقدمك ؟ » . قال : « خلعت قلبى بكتابك ،لاوليت لك ولاية أبدا حتى ألقى الله »

وعاد الرشيد أيضا فبكى بكاء شديدا .. ثم قال : « زدنى » . فقال : « يا أمير المؤمنين ان جدك العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم جاء فقال : « يا رسول الله .. امرنى على امارة » .. فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « يا عم .. نفس تحييها خير من امارة لا تحصيها .. ان الامارة حسرة وندامة يوم القيامة .. فان استطعت أن لا تكون أميرا فافعل »

فبكى الرشيد .. ثم قال : « زدنى » . فقال : « ياحسن الوجه ان استطعت أن تقى هذا الوجه من النار فافعل ،

واياك أن تصبح أو تمسى وفى قلبك غش لرعيتك ·· »

فبكى الرشيد أيضا·· ثم قال للفضيل : « أعليك دين؟» قال : « دين لربى يحاسبنى عليه » ·· فقال هرون : « انما أعنى دين العباد » · فقال : « ان ربى لم يأمرنى بهذا · وانما أمرنى أن أصدق وعده وأطيع أمره » · فقال له الرشيد : « هذه ألف دينار خذها لعيالك ، وتقو بها على عبادة ربك »

فقال الفضيل : « سبحان الله ·· أنا أدلك على النجاة وتكافئنى بمثل هذا · سامحك الله » · ثم صمت ··

لهو الرشيد

صورتان

هناك فرق كبير بين صورة الرشيد التى يمثلها المؤرخون أمثـــال الطبرى وابن خلدون وأبى يوسف فى الخـــراج ، وصورته التى يصورها ألف ليلة وليلة ، والاغانى ، واعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بنى العباس ... الخ

فصورة المؤرخين تصور الرشيد رجـل جد فيه شيء من اللهو ، والكتب الاخيرة تمثله رجل لهو فيه شيء من الجد . وربما كانت صورة المؤرخين أعدل لان الآخرين أكثر حرية وتساهلا فى الرواية وأميل الى اللهو ودعوة الناس اليــه ، وأميـــل الى التزيد من ذكر عطاءات الرشـــيد والبرامكة ونحوهم ، لعلهم يستفيدون من أمراء عصرهم بعض من أعطى من يحكون عنه . فانا لو حسبنا حساب المال الذى أعطاه الرشـــيد والبرامكة على قولهم ، لما كفت الدنيـــا لتحقيق ما قالوا .. فكيف ومالهم محدود ...

على كل حال كان للرشيد من غير شك جانب من اللهو ، وللهو ذلك العصر تاريخ طويل يبتدىء من الدولة الأموية . ولـــكن الامويين كانوا يعملون المـــلاهى لاذواقهم البسيطة العربية .. كالذى روى ان الحجاج أولم فى اختتان بعض ولده ، فاستحضر بعض الدهاقين يسأله عن ولائم الفرس . وقال له : « أخبرنى بأعظم صنيع شهدته »

فقال له : « نعم .. أيها الأمير .. شهدت بعض مرازبة كسرى ، وقد صنع لأهل فارس صنيعا وأحضر فيه صحاف الذهب على أخونة الفضة .. أربعا على واحد ، وتحمله أربع وصائف ، ويجلس عليه أربعة من الناس . فاذا طعموا اتبعوا أربعتهم المائدة بصحائفها ووصائفها » ...

فقال الحجاج يا غلام انحر الجزور كأنه كره هذا الوصف واستعظمه

وكان الأمويون على كل حال يعدلون العادات الفارسية والاغانى الفارسية ونحو ذلك بذوقهم العربى . أما العباسيون فكانوا يأخذون عادات الفرس كما هى بحذافيرها .. اتخذوا النيروز لهم عيدا ولم يكن له فى عصر الامويين شأن له بال . وفى عصر العباسيين كانت تهدى فيه الهدايا ، وتوزع فيه اللطائف ويحتفلون به كما يحتفلون بالعيد الكبير والصغير .. فلما جاءت الدولة العباسية كانت الأمور تحتاج الى جد لا لهو فيه ، ولولاه لضاعت الدولة من أيديهم . فكان أبو العباس السفاح مثلا أول الخلفاء العباسيين ، جادا لا يلهو ، ولما تزوج أم سلمه حلف لها أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى

وحاول بعض المقربين اليه أن يحملوه على اللهو فأبى وأبعدهم ، لأنه شعر بكثرة ما عليه من تبعات لا تمكنه من أن يلهو ساعة

وجاء بعده رجل الدولة أبو جعفر المنصور ، فكان مثل أخيه جادا لا يلهو . فيروى الطبرى أنه لم ير فى دار المنصور لهو قط ولا شىء يشبه اللهو واللعب والعبث . ولما سمع شعر طريف بن تميم العنبرى :

ان قناتى لنبع لا يؤيسـها
غمز الثقـاف ولا دهن ولا نار
متى أجر خائفا تأمن مسارحه
وان أخف آمنـا تقلق به الدار
ان الامور اذا أوردتها صـدرت
ان الأمور لها ورد واصـدار

قال : « أنا أحق بأبياته هذه » · وأمر أن يحدو الحادى له بهذه الابيات ، فأمر باعطائه درهما واحدا ···

فقال الحادى : « يا أمير المؤمنين حدوت بهذه الأبيـات لهشام بن عبـد الملك ، فأمر لى بعشرين ألف درهم وتأمر لى أنت بدرهم »

قال : « انا لله ·· ذكرت ما لم نحب أن تذكره · وصفت رجلا طالما أخذ مال الله من غير حله ، وأنفقه فى غير حله ·· يا ربيع ، أشدد يديك به حتى يرد المال

فما زال الحادى يبكى ويتشـفع حتى كف يده · وكان لا يشرب ولا يحب الشراب· وكل ما فعل انه أذن لبختيشوع الطبيب أن يشرب بحضرته · واشتد الأمر بالناس من كثرة جده وقسوته · ولما رأوا المهـدى يلهو بعض الشىء ويلعب سرى عنهم كما سرى عن الناس بموت عمر وتولية عثمان· وقد كان المهدى كريما لا يكتنز ، ويحب الفنون الجميلة من غناء وشـعر · وبدأ يسمعهم من وراء الستار حفظا لهيبة الخلافة · ثم جره السمار الى أن يحضر مجلس المغنين بدعوى أن اللذة فى مشـاهدة السمر أدعى الى السرور · كما كان يكثر من الجوارى ويحب شراءهن ولم يكن يشرب النبيـذ

ولكن يسمح للناس أن يشربوا فى حضرته • وملأ بشعار بغداد وغيرها بشعره الخليع من مثل :

عسر النساء الى مياسرة

ومثل :

قد عشت بين الريحان والراح والمز
هـر فى ظـل مجلس حسن
وقد ملأت البلاد ما بين قيفو
ر الى القيروان فاليمن
شعرا تصلى له العواتق والشيـ
ـب صلاة الغواة للوثن
ثم نهانى المهدى فانصرفت
نفسى صنع الموفق اللقن
فالحمد لله لا شريك له
ليس بباق شىء على الزمن

اسراف الرشيد

ثم انتقل اللهو فى عهد الرشيد نقلة جديدة • فأسرف فيه اسرافا لم يعرفه خليفة من قبله • وقد منحه الله عاطفة قوية ينسى بها نفسه متى وجدت دواعى الأنس•• وساعده على ذلك سلطان البرامكة فى زمنه ونقل عادات الفرس ، وما نقل عنهم من ترف ونعيم • وكان صديق الرشيد جعفر البرمكى شابا مسرفا على نفسه يلهو ما شاء له اللهو • وكلاهما كان اذا نحا ناحية يصل فيها الى نهايتها • حتى ليخيل لمن يقرأ مثل كتاب الاغانى انه لا يعرف الا اللهو •

ويخطو خطوة أخرى ، فيشرب ويسرف فى الشراب لا كما كان يفعل أبوه ..

على أنه والحق يقال لم يكن لاهيا كل اللهو كما تصوره الاغانى .. ولا جادا كل الجد كالذى يصوره بعض الناس ، وانما كان جادا لاهيا معا . تثور عاطفته الدينية أحيانا فيصلى مائة ركعة ويبكى من الوعظ ويحج ماشيا . وتثور عاطفته الدنيوية حينا فيسمع الغناء ويشرب الشراب . ويقول الشعر وتثور عاطفته الحربية أحيانا فيتولى قيادة الصائفة والشاتية . فمن الناس من يجد ويلهو .. فاذا جاء وقت الجد أسرف فيه ، واذا جاء وقت اللهو أسرف فيه . ويقول مع القائل :

لله منى جانب لا أضيعه ... وللهو منى والخلاعة جانب

فكان الرشيد من هذا الصنف يحارب فيحسن الحرب ، ويلهو فيحسن اللهو ، وكان أبو نواس يعجب الرشيد حين تشعشع الخمر فى رأسه . فيسمعه يصف الخمر ويصف لعبها بالعقول كالذى يقوله :

اسقنى يا بن أدهما ... واتخذنى لك ابنما
اسقنيها سلافة ... سبقت خلق آدما
فهى كانت ولم يكن ... ما خلا الارض والسما
رأت الدهر ناشئا ... وكبيرا مهرما
فهى روح مخلص ... فارق اللحم والدما
فاسقنيها وغن صو ... تا ـ لك الخير ـ أعجما

أو يقول :

يا نديمى رد بالله ... مشاشى وعظامى

اسقنى بالكاس والطا س جميعا وبجـــام
واســقنى حتى ترانى لا أرجى للقيــــام

فالرشيد يستخدمه كنديم على الشراب يطرى له شرابه ويحضه على الاكثار منه ، فهو كالنغمة المرحة المستهترة على الوتر المرح الطروب

وأما منصور النميرى فيطرب الرشيد حين تثور عاطفته على الأمويين والعلويين ، فيحتاج الى من يغنيه بذمهم جميعا ومدح آل العباس عامة ومدحه خاصـــة وهكذا ، مما نوع الشـــعر وفرعه ، وجعـل باب المديح فى الأدب من أكبر الابواب وأطولها

وكان يجيز من شرح له مسألة نحوية أو فقهية أو أدبية، كما يجيز الكثير لمن غنى فأجاد ، ومن غنت فأحسنت يسمع قول أبى العتاهية :

خانك الطـرف الطموح أيهـا القلب الجمـوح
لدواعى الخـير والشـر دنو ونـزوح
هل لمطلوب بذنب توبة منـه نصـوح
كيف اصـلاح قـلوب انما هن قـروح
أحسن الله بنـا ان الخطـايا لا تفـوح
بين عيـنى كـل حى عـلم الموت يلوح
كلنا فى غفـلة والمـوت يغـدو ويروح
لبنى الدنيـا من الدنيـا غبوق وصـبوح
رحـن فى الوشى وأقبلـن عليهن المسـوح
كل نطـاح من الدهـر له يـوم نطـوح
نح عـلى نفسك يا مسكـين ان كنت تنـوح

لتموتن وان عمـــرت ما عمـــــر نوح

فأبو العتاهية يعجب الرشيد شعره اذ كان به نزعة الى الزهد واحتقار ما عليه من ترف ونعيم ٠٠٠ فيسمعه يقول :

اذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل
خـــلوت ولكن قل على رقيب

ولا تحسبن الله يغفـــل ما مضى
ولا ان ما يخفى عليـــــه يغيب

لهونا لعمـــــر الله حتى تتابعت
ذنوب عـــلى اثارهن ذنـــوب

فيـــاليت ان الله يغفـــر ما مضى
ويأذن فى توباتنـــــا فنتـــوب

وان امرءا قد سار خمســين حجة
الى منهـــل من ورده لقـــريب

فاحسن جزاء ما اجتهـــدت فانما
بقرضك تجزى والقروض ضروب

وهكذا من نصائح يميل اليها الرشيد فى بعض الاوقات فيتعظ بها ٠ وقد يبكى منها فيكون أبو العتاهية فى ذلك كالنغمة الحزينة على وتر حزين ٠ فيبكى الرشيد وينتحب٠ ويسمع نكتة من ابن أبى مريم فيضحك حتى يستلقى على قفاه وهكذا

ويقوم خارجى عليه فيقتل أبطاله وينتهب أمواله مرارا٠ ويجهز اليه الرشيد جيشا قويا فيحاربونه ويغلبونه٠ويأمر الرشيد باحضاره فلما يمثل بين يديه ، يقول الرشـــيد : « ما تريد أن أصنع بك ؟ » ٠ قال : « ما تريد أن يصنع الله بك اذا وقفت بين يديه »

فيأمر باطلاقه .. فلما خرج ، قال بعض جلسائه : « يا أمير المؤمنين .. رجل قتل أبطالك وانتهب أموالك تطلقه بكلمة واحدة . فهذا مما يجرىء عليك أهل الشر »

فقال الرشيد : « ردوه » . فعلم الرجل انه قد تكلم فى أمره فقال : « يا أمير المؤمنين لا تطعهم . فلو أطاع الله فيك الناس ما ولاك عليهم »

فيعفو ثانيا ...

ويخرج خارجى آخر ليس له مثل حججه وبراعته فيقتل أبطاله ويدوخ جيوشه . فيحضر اليه والرشيد على سرير الموت . فيأمر بقتله ويقول : « والله لأقتلنك ولو كنت فى النفس الاخير» وهكذا تتجاذبه عواطف الخير والشر والانتقام والعفو . والناس يقلدونه

قدوة الرعية

فما صدقوا أن رأوا الرشيد يقيم مجالس اللهو ويستمع الى ابراهيم الموصلى وغيره .. ويشهد حفلات الرقص حتى قلدوه فى ذلك . فالغنى الكبير ، والوسط الحال ، والتاجر الواسع الثراء ، يقيمون حفلات على قدرهم مثله . وقد رزق الله بنى العباس كثرة فى العدد من كثرة ما يصلون الى الاحرار والاماء . حتى لقد أحصى عدد أولاد العباسيين فكانوا أكثر من ثلاثين ألفا كانوا أو أكثرهم أغنياء مترفين. يقلدون رئيسهم الرشيد ويفعلون فعله فى اللهو والترف

وقد حدثونا ان عبد الله بن العباس بن الوزير الفضل ابن الربيع كان مغنيا ماهرا ، وماجنا مستهترا .. يصطبح

فى حدائق النرجس ويعيش عيشة لهو وخلاعة . وأمثاله كثيرون يطول ذكرهم

وسرت العدوى من أولاد الاغنياء الى الطبقة الوسطى .. وبالغوا فى الموائد وتنسيقها وألوان طعومها . ولكن الحق يقال ان الحياة الاجتماعية فى بغداد كانت أشبه شىء بالحياة الاجتماعيــة الآن فى مصر . غنى مفرط وفقر مفرط . فالامراء وكبار التجار يجرى المال فى أيديهم جرى المـاء . والعلماء وصغار الفلاحين وصغار التجار لا يجدون ما يأكلون الا ان يتصل عالم بخليفة أو أمير فيدر عليه الرزق . فالمعيشة لم تكن ديمقراطية على النحو الذى نألفه اليوم فى الديمقراطية يستطيع أن يتكسب فيه العالم من الشعب

انما كانت حياة ارستقراطية ان لم يستعن العــالم أو الشـاعر بأمير مات من الجوع . ولذلك اشتهر قول القائل فى بغداد :

بغداد دار طيبها أخــذ ... نسـيمها منى بأنفاس
تصلح للموسر لا لأمرى ... يبيت فى فقـر وافلاس
لو حلها قارون رب الغنى ... أصـبح ذا هم ووسواس
هى التى توعــد لكنهـا ... عاجـلة للطاعم الكاسى
حـــور وولدان وكل ما ... تطلبه فيها سوى الناس

ويقول آخر :

أذم بغــــداد والمقام بها ... من بعــد ما خبرة وتجريب
ما عند سكانها لمختبط (١) ... خير ، ولا فرحــة لمكروب
يحتـــاج باغى المقام بينهم ... الى ثلاث من بعــد تثريب

(١) المستجدى

كنـــوز قارون أن تكون له   وعمر نوح وصـــبر ايوب

ولذلك زهد الناس فى هذه الحالة السيئة ، ونزع بعضهم الى الزهد والتصوف . وقد شكا أبو العتاهية من سوء هذه الحالة، وصور بؤس الشعب فى شعره تصويرا لطيفا فقال:

من مبـــلغ عنى الاما   م نصـــائحا متواليـــة
انى أرى الاســـعا   ر أسعار الرعية غالية
وأرى المكاسب نزرة   وأرى الضرورة فاشـية
وأرى غمـــوم الدهـــر رائحة تمر وجائية
وأرى اليتـــامى والارا   مل فى البيوت الخاليـة
مـــن بين راج لم يزل   يسمو اليك وراجيـــة
يشكون مجهدة بأصوا   ت ضعـــاف عاليـــة
يرجون رفدك كى يروا   مما لقوه العافيــــة
من يرتجى للنـــاس غـــيرك للعيـــون الباكيـة
من مصبيـات جـــوع   تمسى وتصبح طاوية
مـــن يرتجى لدفاع كر   ب ملمـة هى ماهيـــة
مـــن للبطون الجـائعـــات وللجسوم العارية
يا ابن الخلائف لافتنـــت ولا عدمت العافيـــة
ان الاصـــول الطيبـــات لها فروع زاكيـــة
ألقيت أخبـــارا اليـــك عن الرعية شـــافية

▭

وحتى الأغنيـــاء والمترفون لم يكونوا منعمـــين بغناهم وترفهم كما ينبغى ، لأنهم كانوا عرضة فى كل وقت للقتل والمصادرة

وقد صدق العتابى ، اذ قيل له : « لم لا تقترب بأدبك الى السلطان ؟ » . فقال : « لانى رأيتــه يعطى عشرة آلاف فى غير شىء ويرمى من الســور فى غير شىء ، ولا أدرى أى الرجلين أكون »

ويصف لنا المؤرخون لهذا العصر فرقة تسمى المتطوعة تنكر ما فشا من الفسق فى بغـداد . وتروى لنا « طبقات الصوفية» انتشار الزهد والفقر بين المتصوفين فى هذا العصر وذلك رد فعل لحياة اللهو بين الاغنياء والمترفين ، ومن أراد أن يعيش ولم يتصل من العلماء بأمير أو وزير عاش فقيرا بائسا ، كالخليل بن أحمد يقول : « اذا أغلق على باب حجرتى كفيت هموم الدنيا » .. وجاءه يوما رسول الخليــفة فأراه الخليل كوزا مملوءا بالماء وكسرة خبز جافة . وقال : « من كان عنده هذان لم يحتج الى خليفة أو أمير »

وحكت لنا كتب التراجم أخبارا كثيرة عن علماء زهدوا فى الامراء وعطايا الخلفاء ، فكان مصــيرهم الفقر المدقع .. كالذى حكوا عن عبد الوهاب المالكى انه كان يجتمع على بابه المئات من العلماء ، ولما أراد الرحيل الى مصر ودعه عدد كبير .. فقال : « والله لو وجدت فى بغداد من الخبز ما يكفينى ما انصرفت عنكم وعنها » . فلما وصل الى مصر وتيسرت حاله حضرته الوفاة ، فقال : «سبحان الله .. اذا عشنا متنا»

وفى كتاب الفلاكة والمفلوكين أمثلة كثيرة من هذا القبيل

الاسراف فى المديح

وهذا هو السبب فى أن الشعر الكثير فى الأدب العربى

هو شعر المديح أو بعبارة أخرى هو شعر الاستجداء . وأما غيره من الشعر فقليل بالنسبة اليه.وهذا أيضا هو السبب فى أن الظاهرين من الشعراء والادباء هم شعراء بغداد

وأما من عداهم فمغمورون ، ولذلك أيضا كان العالم الدينى يكاد يكون أفقر العلماء . لان الدين يمنعه عن الابتذال . ولذلك تقرأ تراجمهم فترى فقرا مدقعا وبؤسا واضحا ورضا بالقليل مع الافراط فى الجوع واحتمال الفقر

وقد سبب الافراط فى الغنى والافراط فى الفقر ،حركة تشبه الاشتراكية اليوم . فقد روى المسعودى ان محمد بن سليمان قريب الرَشيد كان يغل كل يوم مائة ألف درهم ، فكان يركب يوما بالبصرة وسوار القاضى يسايره فى جنازة ابنة عم له . فاعترضه رجل وقال له : « يا محمد ، أمن العدل أن تكون غلتك فى كل يوم مائة ألف درهم وأنا أطلب نصف درهم فلا أقدر عليه ؟ »

ثم التفت الى سوار ، فقال : « ان كان هذا عدلا فأنا أكفر به » فأسرع اليه غلمان محمد وكفوه عنه.وايا ما كان، فنحن لو نظرنا الى الرشيد بعين زماننا لمقتناه . يفعل ما يشاء ، ولا يسأل عما يفعل . حاكم مستبد ، لا يقيده برلمان ولا يتقيد بعدل دائم .. يكثر من مصادرة الاموال ، ويوزعها بالهيل والهيلمان على من لها بأهل ومن ليس لها بأهل . والا فما بال أموال الرعية الفقراء المساكين .. تصرف منها آلاف من الدنانير على بيت من الشعر قيل فى مدحه . أو صوت جميل لحن له . أو على مسألة نحوية تافهة لا تساوى شيئا . أو على جارية جميلة تحسن الغناء

شارلمان والرشيد

تجاوز الدين وأوامره

وكان الخلفاء من عهد معاوية ومن بعده قد تعدوا الاسلام وأوامره الى رغباتهم وميولهم • ولم يشذ عن هـذا الا عمر ابن عبد العزيز• حيث أحاط نفسه بعشرة من كبار التابعين والفقهاء العـالمين بأصول الاسـلام حتى لا يفعل فعلا الا استشارهم وعمل برأيهم • أما من عداه من عهـد معاوية فكانوا يعملون برأيهم هم • وافق روح الاسلام أو خالفه

فليس الرشـيد بدعا من الخلفاء وانما هو نتاج كل من قبله • يسير سيرتهم ويتبع ما تمليه عليه بيئته •• فلو ان خليفة فى العصر الحاضر أمر بقتـل رجل من رعيتـه لكان جرما شنيعا يحز فى صدور الناس ، ولا ينسونه

نعم •• يجب أن تقاس الاخـلاق فى كل زمان ومكان بحسبها • فلو خرجت امرأة سافرة فى عصرنا ما عد هـذا جريمة • بل لو خرجت محجبة لعد حجابها جريمة• والأمر على العكس منذ خمسين عاما فلو خرجت امرأة حرة سافرة لانتقدها الناس وعدوا ما تأتى به منكرا كبـيرا •• وهكذا تتطور الاخلاق بتطور الزمان

وكان الرجل يعير بأنه لم يعرف أبوه •• كم لاقى زياد من العناء لمثل هذا ، وهو اليوم فى بعض بلدان أوربا يعامل كمعاملة من عرفت آباؤهم

كل هذا يخفف من الحملة على الرشيد وأمثاله فى زلاتهم كسفكه دماء البرامكة من غير محـاكمة ولا معرفة بجرم ، ومثل مصادرته للأموال وبعثرته مما صـادر ونحو ذلك . والله لا يؤاخذ الناس الا حسب ظروفهم وبيئاتهم ومقـدار عقولهم

علاقة الرشيد بشارلمان

ومما زاد فى شهرة الرشيد علاقته بالدول الغربيـة ، وتوارد الوفود عليه وارسالها . فقد تحالف مثلا مع شارلمان امبراطور فرنسا وألمانيا وايطاليا وسفرت بينهما سفارات طويلة الأمد مرتين : الاولى اسـتغرقت ما بين عامى ٧٩٨ و ٨٠١ وكانت السفارة فى المرة الاولى مؤلفة من سفيرين افرنجيين ومعهما مترجم يهودى يعرف العربيـة يقال له اسحق .. وكانت السفارة تتضمن أشياء ثلاثة . أن يعهد الرشيد الى شارلمان بالقيام بمصالح العباسيين فيما يفتحه شارلمان من بلاد الاندلس . وأن يثير شارلمان الحزب القائم بالدعوة العباسية فى الاندلس وذلك لاشتراك الطرفين فى عداء الاندلس . الرشيد لخروج بنى أمية عليه وشـارلمان لأن الاندلس اقتطعها المسلمون من دولته . ذلك أن السفاح لما شدد النكير على الأمويين وقتلهم فر عبد الرحمن الملقب فيما بعد بالداخـل هائما على وجهه هو وأخوه واختفى فى بعض البلاد . فلما أحس عبد الرحمن وأخوه بالعباسـيين يقدمون فرا وعبرا النهر . فوعدهما العباسـيون بالنجاة وصدق أخوه . ورجع فذبح

ولم يصدق عبد الرحمن ، وسار الى فلسطين ومنها الى

افريقية ، ثم الى الاندلس · وأمكنه أن يخضعها لأمره ، منتهزا فرصة وجود الخلاف فى البلاد والنزاع القبلى بين اليمنيين والمضريين

وأخيرا استولى على قرطبة ، ثم بقية الأندلس · ونشر الأمن فى أرجائها · وغاظ ذلك المنصور ، ثم الرشيد من بعده ·· اذ كانت الاندلس قد خرجت من أيدى العباسيين

وفى سنة ٧٧٧ ائتمر زعماء العرب فى الشمال الشرقى من الاندلس وألفوا كتلة قوية وانتقضوا على عبد الرحمن· وتعاقدوا مع شارلمان الذى كان مهادنا للرشيد ومناصرا له فرحب الرشيد بهذه الفكرة

ولكن زحف شارلمان سنة ٧٧٨ باء بالفشل عندما أغلقت مدينة سراقوسطة فى وجهه·وهجم على جيشه سكان الجبال· حتى فقد كثيرا من أتباعه ومتاعه · واستعان عبد الرحمن على الانتصار على شارلمان بجيش منظم أحسن تنظيم ومدرب أحسن تدريب · وكان يبلغ نحو أربعين ألف مقاتل من البرابرة الذين استجلبهم من أفريقيا · فلما خذل شارلمان يئس الرشيد منه ومن الاستيلاء على الأندلس !

وكان الرشيد كأبيه وجده شديد العداوة للأمويين ومنهم بنو أمية فى الاندلس ، وشارلمان لحبه فى الفتح وأمنيته فى رد الاندلس الى مملكته بعد أن اغتصبت من المملكة المسيحية· والأمر الثانى أن يسهل الرشيد لزوار بيت المقدس من المسيحيين الكاثوليكيين ويعفيهم من القيود والتكاليف التى وضعها الرشيد اذ ذاك على أهل الذمة

أما السفارة الثانية ، فقد أوفدها شارلمان الى الرشيد

ولقد أحصيت التحف والهدايا التى بعث بها الرشيد الى شارلمان،فكانت بوقا من العاج وهو محفوظ للآن فى مدينة آج . وسيفا وصينية من الذهب محلاة بقطع من الزجاج المختلفة الألوان ، وعليها صورة لكسرى الاول مصنوعة من البللور ـ محفوظة فى دير « سنتدفيس » وقطعة من قطع شطرنج شرقى محفوظة فى الدير نفسه ، وابريقا من الذهب محفوظا فى دير كنتون فللس ، وثمانى شوكات من التاج الذى يقال انهم ألبسوه رأس المسيح عليه السلام عند صلبه

كما يحدثوننا ان الرشيد أرسل الى شارلمان فى السفارة الاولى هدية فيها فيل ، يسمى أبا العباس ، وهدايا أخرى .. وقد أخذ هذا الفيل شهرة واسعة لأن الفرنج لم يكونوا رأوا فيلا قط

وكان الرشيد قد أتى به من الهند ، وبعد ذلك أرسل شارلمان وفدا الى بلاط الخليفة هارون الرشيد ، وقد قالوا انه مر فى طريقه بالاراضى المقدسة ثم سار الى بلاط الخليفة فى بغداد

وقد أرسل الرشيد وفدا آخر الى شارلمان يحمل هدايا ثمينة منها رخام ملون بألوان متنوعة جميلة ، ومنسوجات من الحرير والكتان ، وروائح عطرية وبلسم وساعة مائية وأوان نحاسية . وقد أقام السفراء عند الامبراطور مدة ، ثم أرسلوا الى ايطاليا حيث أبحروا من هناك الى المشرق

وقد أنكر بعض الباحثين من الفرنج حكاية هذه الوفود بدعوى ان مؤرخى العرب لم يذكروها فى كتبهم ، ولكن هذه الحجة لا تقنع . لان كثيرا من الحوادث حدثت فى أوربا

الامبراطور شارلمان يستقبل وفد هرون الرشيد الذى جاءه بالهدايا

ولم يذكرها مؤرخو العرب لجهلهم بها . خصوصا وان بقايا هذه الهدايا محفوظة الى اليوم ، ومن المؤكد انها مصنوعة فى الشرق. وليس من المعقول أن يشتريها اسحاق اليهودى من ماله وينسبها الى الرشيد .. فاسحاق أعجز وأحزم من أن يفعل هذا

وأحياناكانت تصفو العلاقات بين الرشيد والبيزنطيين. فقد روى سفير بيزنطى ان امبراطور القسطنطينية أوفد الى الرشيد وفدا فاستقبل على بضعة فراسخ من بغداد . ومر الوفـد أمام جيش مؤلف مـن مائة وثمانين ألفا مدججين بالسلاح . وقدم للوفد أفخم الهدايا من الخليفة الرشيد ، منها مائة جواد أصيل مجهزة وثياب فاخرة ، وفرش له فى الطريق ثمانية وعشرون ألف طنفسة . تغطى أرض الطريق .. وزين عدد كبير من السفن كانت تمخر عباب نهر الدجلة وانه سمع بداخل القصر زئير الاسود ورئى معها حراسها الافريقيين ، مما أدهش الوفد

وكانت هـذه الوفود سواء فى القسطنطينية أو عند شارلمان تنشر الاحاديث العجيبة عما شاهدوه .. فيعظم فى عينيهم شأن الرشيد وشأن الشرق

وكانت عقلية الرشيد اذ ذاك أنضج وأوعى من عقلية الغـرب ... وكانت صناعتهم أدق وأجمل حتى ليحدثونا ان الغربيين عجبوا عجبا شديدا عند رؤيتهم البوصلة والساعة الدقاقة ، وظنوا من عجبهم أن فيهما شيطانين يحركانهما ويأتيان بهذه الاعاجيب

وكان من مقتضى هذه الحضارة التى شاهدناها فى القصور

والعمارات والاسواق والهدايا ، أن تصل الينا آثارها مما يدلنا عليها ولـكن غزوة التتار التى جاءت فى آخر الدولة العباسية وقضت عليها أذهبت آثارها وأضاعت كنوزها ٠ فقد كانت غزوة عنيفة جامحة لم يسبق لها فى التـــاريخ مثيل ٠٠ قال السيد أمير على :

« ان هولاكو أصدر عند زحفه على بغـــداد أمره بنهب المدينة وذبح أهلها ، حتى خرج الشيوخ والاطفال والنساء من المنازل حاملين المصـاحف على أكفهم وهم يتوســلون ويتضرعون الى الجنود بشكل يفتت الاكباد ٠ ولكن الغزاة لم يعبأوا باستغاثتهم ، ووطئوا أجســامهم بحوافر خيولهم ٠ وهجموا على نساء الاشراف والنبلاء

أما الكنوز الادبية والفنية ومخلفات المدنية الاســلامية فقد دمرت تدميرا فى خلال بضع ساعات ٠ وطفقت شوارع المدينة تجرى فيها الدماء ثلاثة أيام حتى اصطبغ ماء دجلة بالدم لعدة أميال ٠ وظل التخريب والذبح وانتهاك الحرمات ستة أســـابيع وتقوضت القصور والجوامع اما بالنـار أو بالمعاول ٠٠ لانه كان يغيظهم ما فيها من قبابها الذهبيـــة وأشعلوا النار فى نتـــائج قرائح العلماء والادباء ، وألقيت الكتب بعضها فى النار وبعضها فى نهر دجلة

وهكذا فقدت كنوز خمســـة قرون وفنيت زهرة الأمة فناء تاما ٠٠ »

عهد الرشيد لولديه

واهتـــدى الرشيد أخيرا الى أن يعهـــد بالخلافة للأمين

والمأمون ، ويقسم البلاد بينهما ٠٠ وبعدهما الى المعتصم ٠ وفاته أن الملك لا يحتمل الاشـتراك ٠٠ فلابد أن يتخاصم الشريكان أو الشركاء ويتغلب أحدهم ٠ وهذا ما كان بعده

ففى سنة ١٨٦ هجرية حج الرشيد ومعه المرشـحان للخلافة الأمين والمأمون وقواده ووزراؤه وقضاته٠فبعد أن قضى مناسك الحج كتب كتابين ، أجهد الفقهاء والقضـاة أنفسهم فيهما ليزيدوا الكتابة توثيقا ٠ أحـدهما على محمد الأمين يشترط عليه الوفاء بأن يولى المأمون خراسـان وما اليها ، ويوصى للمأمون فيه بأموال وضياع وغلات وأدوات الحرب

والثانى يحوى صورة البيعة لهما وهى التى أخـذها من الخاصة والعامة ، وجعل الكتابين فى البيت الحرام تأكيـدا لهما ٠ وعليهما توقيع الوزراء والقادة والأمراء ووجوه بنى هاشم والقضاة والفقهاء بعد أن أمر الرشيد بقراءة الكتابين ووقع عليهما ، واعـترضت زبيدة يوما أم الأمين باعطاء أدوات الحرب للمأمون ، فقال لها : « انى أخاف على المأمون من الأمين ، ولا أخاف على الأمين من المأمون »

واطمأنت نفس الرشيد بعض الشىء

كتاب المأمون للرشيد

وهذا نص الكتاب الذى كتبه المأمون لأبيه الرشيديتعهد فيه بتنفيذ العهود التى أعطيت له ما نفذ الأمين العهـود عليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. هذا كتاب كتبه عبد الله ابن هرون أمير المؤمنين فى صحة من عقله وجواز من أمره وصدق نيته ، فيما كتب فى كتابه هذا ومعرفته بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين

« ان أمير المؤمنين ولانى العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين فى سلطانه بعد أخى محمد بن هرون أمير المؤمنين وولانى فى حياته وبعد موته ثغور خراسان وكورها وجميع أعمالها ، من الصدقات والعشر والبريد والطرز وغير ذلك . واشترط لى على محمد بن هرون أمير المؤمنين الوفاء بما عقد لى من الخلافة والولاية للبلاد والعباد بعده . وولاية خراسان وجميع أعمالها . لا يعرض لى فى شىء مما أقطعنى أمير المؤمنين أو ابتاع لى من الضياع والعقد والدور والرباع . أو ابتعت لنفسى من ذلك وما أعطانى أمير المؤمنين هرون من الاموال والجوهر والكساء والمتاع والدواب لا يحاسبنى فى شىء ، ولا يدخل على ولا على أحد كان معى ومنى ، ولا عمالى ولا كتابى ومن استعنت به من جميع الناس مكروها فى نفس ولا دم ولا شعر ولا بشر ولا مال ولا صغير ولا كبير . وكتب بذلك كتابا وكتبه على نفسه

« وشرطت لعبد الله هرون أمير المؤمنين وجعلت له على نفسى أن أسمع لمحمد بن أمير المؤمنين وأطيعه ولا أعصيه ، وأنصحه ولا أغشه ، وأوفى ببيعته وولايته ولا أغدر ولا أنكث . وأنفذ كتبه وأموره وأحسن مؤازرته ومكانفته . وأجاهد عدوه فى ناحيتى ما وفى لى بما شرط لى ولعبد الله هرون أمير المؤمنين ورضى لى به وقبلته وان احتاج محمد بن

أمير المؤمنين الى جند وكتب الى يأمرنى باشخاصهم اليه أو الى ناحية من النواحى أو عدو من أعدائه خالفه وأراد نقص شيء من سلطانه الذى أسـنده هرون أمير المؤمنين الينا ، وولاناه أن أنفذ أمره ولا أخالفه ولا أقصر فى شيء كتب به الى

« وان أراد محمد بن أمير المؤمنين أن يولى رجلا من ولده العهد من بعدى ، فذلك له ما وفى بما جعل لى أمير المؤمنين هرون . واشترط لى عليه ، وشرطه على نفسه فى أمرى . وعلى انفاذ ذلك والوفاء به ولا أنقض ذلك ولا أغـيره . ولا أبدله ولا أقدم قبله أحدا من ولدى ولا قريبا ولا بعيدا من الناس أجمعين . الا أن يولى هرون أمير المؤمنين أحـدا من ولده « العهد » بعدى فيلزمنى ومحمدا الوفاء بذلك

« وجعلت لأمير المؤمنين هرون ولمحمد بن أمير المؤمنين جميع ما اشـترط لى هرون أمير المؤمنين فى نفسى . وما أعطانى أمير المؤمنين من جميع الاشياء المسماة فى الكتـاب الذى كتبه لى ، وعلى عهـد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمتى ، وذمم آبائى وذمم المؤمنين وأشـد ما أخذ الله على النبيين والمرسـلين وخلقه أجمعين من عهـوده ومواثيقه والايمان المؤكدة التى أمر الله بالوفاء بها . فان أنا نقضت شيئا مما شرطت وسميت فى كتابى هذا أو غيرت أو بدلت أو نكثت أو غدرت فبرئت من الله ومن ولايته ومن دينه ومن محمد رسول الله ولقيت الله يوم القيـامة كافرا به مشركا وكل امرأة هى اليوم لى أو أتزوجها الى ثلاثين سـنة طالق ثلاثا البتة .. طلاق الحرج . وكل مملوك لى اليوم أو أملكه

الى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله ، وعلى المشى الى بيت الله الحرام الذى بمكة ثلاثين حجة نذرا واجبا على وفى عنقى حافيا راجلا لا يقبل الله منى الا الوفاء به . وكل مال هو لى اليوم أو أملكه الى ثلاثين سنة هدى بالغ الكعبة . وكل ما على لعبد الله أمير المؤمنين ما فى هذا الكتاب لا أضمر غيره ولا أنوى سواه » ..

وشهد الشهود الذين شهدوا على أخيه محمد ابن أمير المؤمنين

وقد كانت هذه غلطة كبرى لم يسبق اليها . فلم يعهد أحد قبل الرشيد لاثنين يتوليان فى وقت واحد ، لأنه كان من البداهة أن الخليفة لا يمكن أن يتسع صدره لمنافس له . وتلك حال طبيعية .. ولكنه كان تحت ضغط عقله وعاطفته . فهو يحب الأمين وتطن فى آذانه نغمة زبيدة والفضل بن الربيع باستمرار ليعهد الى الأمين

وعقل الرشيد يدعوه لأن يبايع أكفأ أولاده .. وكان المأمون من غير شك أكفأهم . فسمع لعقله ببيعة المأمون .. وسمع لعاطفته ببيعة الأمين

ولو خضع لعقله الأعلى لبايع المأمون وحده . واعتمد على الكفاية وحدها . وعلم أن الملك لا يتسع لرجلين كالالوهية . والله تعالى يقول : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا »

ولم يعتبر هرون الرشيد بتجارب الأمم ، وأحداث الزمان ، فكان من أشهر الحوادث التى فيها عبرة ما حدث

للاسكندر .. فقد كان ملكه أكبر من ملك الرشيد . ولما مات اقتسم قواد أربعة ملكه ، فملك بطليموس مصر وجزءا من سوريا وملك آخر مقدونيا وبلاد اليونان . وملك الثالث بعض أجزاء آسيا الصغرى . وملك الرابع من البحر الاسود الى نهر السند .. ومع ذلك ظلوا يتنافسون ويتقاتلون حتى انحطت مقدونيا لهذه الفتن الداخلية ، وانتهت هذه المأساة باستيلاء الرومانيين على بلاد اليونان وضمها الى أملاكها .. حتى أصبحت اليونان جزءا من مملكة الرومان تفقد استقلالها وتعيش تحت حكمها .. وهكذا أحداث التاريخ ..

وشيء آخر جره هـذا التصرف وهو أن أبناءه هؤلاء لما طمعوا في الملك استثقلوا حياته ، وتمنوا موته . حتى شكا الرشيد لبعض خاصته من أولاده ، وقال : « انهم يحصون على أنفاسي .. انني الساعة أدعو ببرذون فيجيئوني به أعجف ليزيدوا في علتي » ...

ومما زاد الطين بلة أمران :

أولهما ، أنه أحيا العصبية البغيضة الى أقصى حد . فتعصب العرب للأمين ، وتعصب الفرس للمأمون . وتقاتلا قتالا عنيفا شديدا تذكيه هـذه العصبية ، حتى اذا انتهت الحرب العنيفة لم يعد العنصران نافعين كما ذكرنا

وثانيهما ، انه وضع القوة الحربية كلها في يد المأمون .. وكانت القوة الحربية التي في يد الأمين مصطنعة لا تمدها الا العصبية العربية . ولذلك انتصر المأمون .. يضاف الى

ذلك أن العرب قد غلبهم الفرس وأخضعوهم وأذلوهم من أول بدء الخلافة العباسية الى عهد المأمون ، فلم تكن فيهم بقية صالحة

□

ويروون أن الكتاب لما رفع ليعلق وقع ٠٠ فقيل ان هذا الأمر سريع الانفضاض ، وكذلك كان ٠٠ فلم تنفع المواثيق والايمان بجانب ما فى النفس البشرية من طمع وحرص وكراهية للمشاركة فى الملك والسلطان ٠ وقد حدثت الرشيد نفسه بهذا ، وتوقع الشر بينهما علما بالطبيعة البشرية ٠ فروى الكسائى ، قال :

« دخلت على الرشيد ، فلما قضيت حق التسليم والدعاء وثبت للقيام ٠ فقال : « اقعد » فلم أزل عنده حتى خف عامة من كان فى مجلسه ، ولم يبق الا الخاصة ٠ فقال لى : « يا على ، ألا تحب أن ترى محمدا وعبد الله ؟ » ٠ قلت : « ما أشوقنى اليهما يا أمير المؤمنين » ، وأسرنى بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما » ٠ فأمر باحضارهما ، فلم ألبث أن أقبلا ٠٠ ككوكبى أفق يزينهما هدوء ووقار ، قد غضا أبصارهما وقاربا خطوهما ٠ حتى وقفا على باب المجلس فسلما على أبيهما بالخلافة ودعوا له بأحسن الدعاء ٠ فأمرهما بالدنو منه ٠ فصير محمدا عن يمينه وعبد الله عن يساره ٠ ثم أمرنى أن أستقرئهما وأسألهما ففعلت ٠ فما سألت عن شىء الا أحسنا الجواب فيه والخروج منه ٠ فسر بذلك الرشيد حتى تبينته فيه ٠ ثم قال لى : « يا على ٠٠ كيف ترى مذهبهما

وجـوابهما » . فقلت : « يا أمير المؤمـــنين هما كما قال الشاعر » :

أرى قمرى مجد وفرعى خلافة يزينهما عرف كريم ومحتد

« يا أمير المؤمنين .. هما فرع زكا أصله وطاب مغرسه. وتمكنت فى الثرى عروقه وعذبت مشـاربه . أبوهما أغر نافذ الأمر واسع العلم عظيم الحلم ، وســيحكمان بحكمه ويستضيئان بنوره وينطقان بلسانه ، ويتقلبان فى سعادته

« فما رأيت أحدا من أولاد الخلفاء وأعضاء هذه الشجرة المباركة أعذب ألسنا ، ولا أحسن ألفاظا ، ولا أشد اقتدارا على تأدية ما حفظ منهما . ودعوت لهما دعاء كثيرا . وأمن الرشيد على دعائى ثم ضمهما اليه وجمع يديه عليهما ، فلم يبسطهما حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره ثم أمرهما بالخروج

« فلما خرجا أقبـــل على فقال : (كأنك بهما وقـد حم القضاء ونزلت مقادير السماء وبلغ الكتاب أجله. قد تشتتت كلمتهما واختلف أمرهما . ثم لم يبرح ذلك حـتى تسفك الدماء وتقتل القتلى وتهتك ستور النساء ويتمنى كثير من الاحياء انهم فى عداد الموتى) . قلت : (أيكون ذلك يا أمير المؤمنين لأمر رؤى فى أصل مولدهما . أو لأمر وقع لأمير المؤمنين فى مولدهما) . فقال : (لا والله .. انما بأثر حمله العلماء عن الاوصياء عن الانبياء)

ومرة أخرى ، قال لمروان الخادم : « على بيحيى .. فما لبث أن أتاه » . فقال : « يا أبا الفضل .. ان رسول الله مات فى غير وصية والاسلام جذعة والايمان جديد . وكلمة

العرب مجتمعة · فقد آمنها الله تعالى بعد الخوف وأعزها بعد الذل · فما لبث أن ارتد عامة العرب على أبى بكر · وكان من خبره ما قد علمت وان أبا بكر صير الأمر الى عمر ·· فسلمت الأمة له ، ورضيت بخلافته، ثم صيرها عمر شورى فكان بعده ما قد بلغك من الفتن حتى صارت الى غير أهلها· وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتسييره الى من أرضى سيرته وأحمد طريقته وأثق بحسن سياسته· وآمن ضعفه ووهنه ، وهو عبد الله « المأمون » وبنو هاشم مائلون الى محمد «الأمين» بأهوائهم · وفيه ما فيه من الانقياد لهواه والتصرف مع طويته والتبذير لما حوت يده ومشاركة النساء والاماء فى رأيه

« فان ملت الى عبد الله أسخطت بنى هاشم ، وان أفردت محمدا بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية · فأشر على فى هذا الأمر برأيك .فلك مشورة يعم فضلها ونفعها · فانك بحمد الله مبارك الرأى لطيف النظر »

فقال : « يا أمير المؤمنين ان كل زلة مستقالة ، وكل رأى يتلافى خلا هذا العهد · فان الخطأ فيه غير مأمون والزلة فيه لا تستدرك · وللنظر فيه مجلس غير هذا · فعلم الرشيد انه يريد الخلوة · قال الاصمعى : « فأمرنى بالتنحى ·· فقمت وقعدت فى ناحية بحيث أسمع كلامهما ·· فما زالا فى مناجاة ومناظرة طويلتين حتى مضى الليل وافترقا على أن عقد الرشيد الأمر لعبد الله مع محمد »

وهكذا كان الرشيد ، كأنه يقرأ حجب الغيب ، وكان

يتخوف من النتائج التى قد تنجم من هذا العهد ‥ ويفكر ويطيل التفكير ويستشير ويكثر الاستشارة

فما مات الرشيد حتى نقض الأمين العهـــد ، وأراد أن يخلع المأمون وينفرد بالسلطان ‥ فكان بينهما من الحروب ما لا نتعرض له الآن

وعلى كل حال ، كانت هذه عقدة نفسية عند الرشيد‥ حلها بهذا الشكل الذى لم ينجح

نهاية الرشيد

مرض الرشيد وموته

وفجأة أحس الرشيد مرضا .. فبال فى قارورة ودس قارورته فى قوارير المرضى بعد أن أعلمها . ثم عرضت القوارير على الطبيب ، وكان فحص البول معروفا فى عصر الرشيد. فلما نظر الطبيب الىقاروة الرشيد قال : «عرفوا صاحب هذا الماء انه هالك .. فليوص ، فانه لا برء له من هذه العلة .. فبكى الرشيد وجعل يردد هذين البيتين :

ان الطبيب بطبـــه ودوائه   لا يستطيع دفاع محذور أتى
ما للطبيب يموت بالداء الذى   قد كان يبرى مثله فيما مضى

واشتد ضعفه وأرجف الناس بموته .. فدعا بحمـــار ليركبه ، فهدلت فخذاه . فلم يثبت على السرج ، فقال : « أنزلونى ، صدق المرجفون » . وأثرت فى نفسه هـــذه النبوءة حتى كان يحلم بها

يحدثنا جبريل بن يختيشوع ، فيقـــول : « كنت مع الرشيد فى قصره فى الرقة ، وكنت أول من يدخل عليه فى كل غداة ويتعرف حاله .. فان كان أنكر شيئا وصفه ثم يتبسط فيحدثنى بحديث جواريه ، وما عمله فىمجلسه، ومقدار شربه وساعات جلوسه ، ثم يسألنى عن أخبارالعامة وأحوالهم .. فدخلت عليه فى هذا اليـــوم فلم يكد يرفع طرفه ، ورأيته مفكرا مهموما ، فوقفت بين يديه مليا ، فلما

طال ذلك أقدمت عليه · فقلت : « يا سيدى ·· جعلنى الله فداك ، ما حالك هكذا · أعلة فأخبرنى بها » فلعله يكون عندى دواؤها · أو حادثة فى بعض من تحب ، فذلك ما لا يدفع ولا حيلة فيه الا التسليم ، والغم لادرك فيه · أو فتق ورد عليك فى ملكك · فلم تخل الملوك من ذلك · وأنا أولى من أفضيت اليه بهذا الخبر »

فقال الرشيد : « ليس غمى وكربى بشىء كما ذكرت » ولكن لرؤيا رأيتها فى هذه الليلة وقد أفزعتنى »

فقلت : « اذلك الغم كله لرؤيا ، وهى أما تكون من خاطر أو من بخارات رديئة أو من تهاويل السوداء · وانما هى أضغاث أحلام · فما هى اذا ؟ »

قال : « رأيت كأنى جالس على سريرى هذا اذ بدت من تحتى ذراع أعرفها ، وكف أعرفها ·· وفى الكف تربة حمراء ، قال لى قائل أسمعه ولا أرى شخصه : « هذه هى التربة التى تدفن فيها» · فقلت: « وأين هذه التربة ؟»قال: «فى طوس» وغابت اليد وانقطع الكلام ، فقلت : « ياسيدى هذه والله رؤيا بعيدة ·· أحسبك أخذت مضجعك ففكرت فى خراسان وحروبها ، وما قد ورد عليك من انتقاض بعضها »

قال : « لقدكان ذلك » ·· قلت : « فلذلك الفكر خالطك فى منامك فولد هذه الرؤيا · فلا تحفل بها واتبع هذا الغم سرورا يخرجه من قلبك »

فسرى عنه وأمر باعداد ما يشتهيه ويزيد فى لهوه ونسينا تلك الرؤيا ·· وما خطرت لنا بعد على بال · ثم

سار الى خراسان ، فلما كان فى بعض الطريق ابتدأت به العلة . فلم تزل تتزايد حتى دخلنا طوس

فذكر الرشيد تلك الرؤيا فوثب متحملا لقوم ويسقط ، فاجتمعنا اليه كل يقول: يا سيدى .. ما حالك وما دهاك . فقال : « يا جبريل أتذكر رؤياى بالرقة ، ثم رفع رأسه الى مسرور وقال جئنى من تربة هذا المكان . فمضى مسرور فأتى بتربة حمراء . فقال الرشيد هذه والله هى التربة التى رأيتها فى منامى ، وأقبل على البكاء والنحيب ثم مات بها . وذكر وهو يجود بنفسه قول الشاعر :

وانى من قوم كرام يزيدهم شماساوصبرا شدة الحدثان

ومات وهو ابن خمس وأربعين سنة .. ويحدثنا المؤرخون أنه كان جميلا وسيما أبيض جعد الشعر .. وقد وخطه الشيب فى آخر أيامه

خاتمة

ونحن اذا أحصينا عمر الخلفاء الأمويين والعباسيين وجدنا متوسط حياتهم بين الخمسة والأربعين والخمسين ، وبعبارة أدق حول ٤٨ سنة . وانما قصر عمرهم لشدة مشاغلهم وافراط أكثرهم فى الشهوات ، وتحملهم أكبر المسئوليات ، وتناسلهم من أصل قصر عمره

وذكر المسعودى أن محمد بن على العبدى العباسى الخراساني الاخبارى أن الخليفة القاهر ، وكان شديدا متقلبا متلونا يهابه الناس ويخشون صولته . قال للعبدى

هذا : أخبرنى عن بنى العباس أخلاقهم وشيعهم ، من أبى العباسى الى من دونه

فقال العبدى : « على أن لى الأمان يا أمير المؤمنين »

قال : « ذلك لك »

قلت : أما أبو العباس عبد الله فكان سريعا الى سفك الدماء واتبعه عماله فى الشرق والغرب واستنوا بسيرته . أما المنصور فكان والله أول من أوقع الفرقة بين ولد العباس ابن عبد المطلب وبين آل أبى طالب . وقد كان أمرهم قبل ذلك واحدا . وكان أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم وكان معه نوبخت المجوسى المنجم وأسلم على يديه. وابراهيم الفزارى المنجم وعلى بن عيسى الاسترلابى المنجم، وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات الاعجمية الى العربية .. منها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السند هند

« وترجمت له كتب أرسطاليس من المنطقيات وغيرها . وترجم له كتاب المجسطى لبطليموس وكتاب الارثماطيقى وكتاب أقليدس وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية ، وخرجت الى الناس فنظروا منها وتطلعوا الى علمها ، وفى أيامه وضع محمد بن اسحاق كتاب المغازى والسير وأخبار المبتدأ . ولم تكن قبل ذلك مجموعة ولا معروفة ولا مصنفة ، وكان أول خليفة استعمل مواليه وغلمانه وصرفهم فى مهماته . وقدمهم على العرب فاتخذ ذلك الخلفاء من بعده من ولده فسقط العرب وزال بأسهم ، وذهبت مراتبهم

ولما أفضت الخلافة الى المنصور نظر فى العلوم وقرأ المذاهب

وارتاض فى الآراء ووقف على النحل ، فكثرت فى أيامه روايات الناس واتسعت عليهم علومهم ، وجاء بعده المهدى فكان سمحا سخيا كريما جوادا . فسلك الناس فى عصره سبيله وذهبوا فى أمرهم مذهبه واتبعوه فى مساعيهم . وكان من فعله فى ركوبه أن يحمل معه بدر الدراهم والدنانير . فلا يسأله أحد الا أعطاه ، وأمعن فى قتل الملحدين والمداهنين لظهورهم فى أيامه واعلانهم اعتقاداتهم فى خلافته ، لما انتشر من كتب مانى وديصان مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره .

« وترجمت فى أيامه كتب من الفارسية والفهلوية الى العربية ، فكثر بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم فى الناس، وكان المهدى أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب للرد على الملحدين واقامة البراهين على المعاندين ، وشرع فى بناء المسجد الحرام ، ومسجد النبى عليه السلام ، وبنى بيت المقدس . وقد كانت هدمته الزلازل

« وجاء بعده الهادى ، فكن جبارا عظيما وكان أول من مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة والاعمدة المشهورة والقسى الموتورة ، فسلكت عماله طريقته ويمموا منهجه وكثر السلاح فى عصره

« وجاء بعده الرشيد فكان مواظبا على الغزو والحج واتخاذ المصانع والآبار والبرك والقصور فى طريق مكة ومنها عرفات ومدينة النبى صلى الله عليه وسلم ، فعم الناس احسانه مع ما قلده به من حوله ثم بنى الثغور ومدن المدن

وحصن الحصون مثل طرسوس وأذنه وعمر المصيصه ومرعش ، وأحكم بناء الحرمين وغير ذلك من دور السبيل والمواضع للمرابطين ، واتبعه عماله وسلكوا طريقته وقفته رعيته مقتدية بعمله مستننة بامامته ، فغمط الباطل وأظهر الحق وأنار الاسلام وبرز على سائر الأمم • وكان أحسن الناس فى أيامه أم جعفر زبيدة بنت المنصور لما أحدثته من دور السبيل بمكة واتخاذ المصانع والبرك والآبار بهـا وطريقها المعروف الى هذه الغاية ، وما أحدثته من الدور للتسبيل بالثغر الشامى وطرسوس ، وما وقفت على ذلك من الوقوف ، وما ظهر فى أيامها من فعل البرامكة وجودهم وأفضالهم وما اشتهر عنهم من اتصالهم

« وكان الرشيد أول خليفة لعب بالصولجان فى الميدان ، ورمى بالنشاب فى البرجاس ، ولعب بالكرة والقبقـاب وقرب الحذاق فى ذلك، فعم الناس ذلك وقلدوه فى فعله • وكان أول من لعب بالشطرنج والنرد من خلفاء بنى العباس وقدم اللعاب ، وأجرى عليهم الرزق فسمى الناس أيامه لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها أيام العروس الى كثير مما يجاوز النعت ويفاوت الوصف

قال القاهر : « أراك قد قصرت فى تفصيل أعمال زبيدة أم جعفر »

قلت : « يا أمير المؤمنين ميلا الى الاختصار وطلبا للايجاز»

قال : « زدنى فيها »

قلت: « نعم يا أمير المؤمنين، كان من فعلها وحسن سيرتها فى الجد والهزل ما برزت فيه على غيرها ، فأما الجد فالآثار

الجميلة التى لم يكن فى الاسلام مثلها مثل حفر العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز وانفاقها الالوف على ذلك عدا ما كان فى وقتها من البذل وما عم أهل الفاقة من المعروف والخصب

« وأما الوجه الثانى ، فمما تتباهى به الملوك فى أعمالها وينعمون به فى أيامهم فهى أنها أول من اتخذ الآلات من الذهب والفضة المكللة بالجواهر وصنع لها الرفيع من الوشى حتى بلغ الثوب الذى اتخذ لها خمسين ألف دينار . وهى أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجوارى يختلفون على الدواب فى جهاتها ويذهبون فى حوائجها برسائلها وكتبها، وأول من اتخذ القباب من الفضة والأبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشى والسمور والديباج ، وأنواع الحرير من الاحمر والاصفر والاخضر ، واتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر وشمع العنبر . ولما أفضى الأمر الى ولدها الأمين ، ورأت شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم .. اتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه وعممت رؤوسهن ، وجعلت لهن الطرر والاصداغ ، والاقفية وألبستهن الاقبية والقراطق والمناطق فبانت خدودهن وبرزت أردافهن ، وبعثت بهن اليه فاختلفن فى يديه واستحسنهن واجتذبن قلبه اليهن وأبرزهن للناس واتخذ الناس من الخاصة والعامة الجوارى المطمومات وألبسوهن الاقبية والمناطق وسموهن الغلاميات

الخلاصة

ونحن اذا لخصنا أوصاف الرشيد من كل ما رأينا ،

عرفنـــا أنه كان فى جسمه : أبيض جميلا ، جعد الشعر ، قد وخطه الشيب ٠٠ وفى عقله : مثقفا واسع الثقافة فى العربية والفارسية ٠٠ وفى أخلاقه : حاد العاطفـــة ، قد يغضب لأتفه سبب ، ويقتل لأتفه سبب ويعفو لاتفـــه سبب ، يجد لابعد حد فيحارب حروب الابطال ويتغلب على كل الثورات،ويصلى ويحج ويقود الصائفة أحيانا والشاتية أحيانا ، ويتباهى فيأتى بالعجب العجـــاب أمام الوفود والزائرين ، ويتخاشع فيبكى بكاء مرا ، ويلهو فتكون له المجالس الرائعة فى الغناء والرقص وما الى ذلك ٠٠

وهذه كلها نتيجة العاطفة الحادة ٠٠ وله الى جانب ذلك ضمير حى يقتل البرامكة أحيانا ثم يحزن لفقدهم ، ويقتل الطالبى ويحزن لقتله ، ويحبس ثم يندم فيطلق ، ويقول فيحسن القـــول ، ويشرف على أولاده فيحسن تربيتهم ، ويسمع الشعر فيتذوقه

ويظهر أنه كان متدينا شديد التدين ولكن ليس واسع الصدر فى دينه سعة ابنه المأمون٠٠ بلغه مرة أن بشرا المريسى يقول بخلق القرآن، فقال والله لئن وجدته لأقتلنه ٠ فايمان الرشيد كايمان العجائز ، وكان وديعا حتى ليصـــب الماء على يد ضيفه اذا كان من العلماء ٠ وقد روى أبو معاوية ، قال : أكلت مع الرشيد يوما ثم صب على يدى رجل لا أعرفه ، ثم قال الرشيد : أتدرى من يصب على يديك ؟ قال : لا ٠ قال الرشيد : أنا اجلالا للعلم !

وكان قريب الدمع مما يدل على شدة عاطفته ، حتى قال منصور بن عمار : ما رأيت أغزر دمعا عند الذكر من ثلاثة:

الفضيل بن عياض ، والرشيد ، وآخر ..

وكان كريما ، فكم روى من عطائه مئـــات الالوف .. اما لمغن يجيد الغناء ، أو لواعظ يحسن الوعظ فيبكيه ، أو لشاعر يمدحه فيعرف كيف يمدحه أو غير ذلك

وقد قالوا انه كان يقتفى أثر جده المنصور فى حزمه وشدته واحساسه بالتبعة الا البخل .. فقد عرف المنصور به وعرف الرشيد بالكرم ، وزاد الرشيد قوة وعظمـــة كثرة النابغين حوله فى مختلف العلوم والفنون ، فالاصمعى فى اللغة ، وأبو يوسف فى الفقه ، واسحاق الموصـــلى فى الغناء ، والبرامكة للوزارة مما جعل قصره كعبة يحج اليها وعروسا تتباهى بجمالها ..

ولم نجد له نظيرا فى الخلفاء ، يجد فيحسن الجد ، ويلهو فيجيد اللهو .. بل هم فى الاغلب الأعم اما جاد لا يلهو كجده المنصور ، أو لا يجد كابنه الأمين

والمظنون من جميع الاوصاف التى ذكروها أنه مـــات بالسرطان ، وقد قالوا انه لما حضرته الوفاة غشى عليـــه ، ففتح عينيه فرأى الفضل بن الربيع فقال : يا فضل

أحـــين دنا ما كنت أخشى دنوه
رمتنى عيون الناس من كل جانب
فأصبحت مرحوما وكنت محسدا
فصبرا على مكروه أمن العـــواقب

أمين دنا ما كنت أرجو دنوه رمتنى عيون الناس من كل جانب
فأصبحت مرحوما وكنت محسدا فصبرا على مكروه أمن العواقب

فرحمة الله عليه

جدول بأهم الأحداث التى وقعت فى عهد الرشيد

من سنة ١٧٣ الى سنة ١٩٣ الهجرية

سنة	
١٧٣	موت الخيزران
١٧٥	موت الليث بن سعد
١٧٥	عهد الرشيد لابنه محمد بولاية العهد
١٧٦	هاجت الفتنة بدمشق بين اليمنية والمضرية
١٧٧	ولاية هرثمة بن أعين بلاد أفريقية
١٧٨	فتنة أهل الحوف بمصر
١٧٩	موت الامام مالك
١٧٩	سير جعفر بن يحيى البرمكى الى الشام لاخماد العصبية بين اليمنية والمضرية فسكنها
١٨٤	موت يزيد بن مزيد الشيبانى أحد قواد الرشيد
١٨٦	حج الرشيد ومعه وليا عهده الأمين والمأمون
١٨٧	مبايعة الرشيد لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون
١٨٧	نقض نقفور العهد للرشيد
١٨٧	عودة الفتنة بين المضرية واليمنية فى الشام
١٨٧	نكبة البرامكة
١٨٩	سير الرشيد الى الرى لعدم اطمئنانه الى أهل خراسان
١٩٣	موت الفضل بن يحيى
١٩٣	خروج الرشيد الى طوس
١٩٣	موت الرشيد

فهرس

صفحة	
٥	مقدمة
٨	الرشيد فى سطور
١١	ميلاد دولة
١٩	على أريكة الخلافة
٣١	أبهة ا[illegible]
٤٥	[illegible]
٦١	[illegible]
٨١	ال[illegible]
١٠٥	الأد[illegible]
١١٩	[illegible]
١٥٧	[illegible]
[illegible]	[illegible]

ر...

١٧٨ فتنة أهل الحوف .

١٧٩ موت الامام مالك

١٧٩ سير جعفر بن يحيي البرمكى الى الشام العصبية بين اليمنية والمضرية فسكنها

١٨٤ موت يزيد بن مزيد الشيبانى أحد قواد ال

١٨٦ حج الرشيد ومعه وليا عهده الأمين و

١٨٧ مبايعة الرشيد لابنه القاسم بولاية الع

١٨٧ نقض نقفور العهد للرشيد

١٨٧ عودة الفتنة بين المضرية واليمنية فى الشـ

١٨٧ نكبة البرامكة

١٨٩ سير الرشيد الى الرى لعدم اطمئنانه الى أهل خـ

١٩٣ موت الفضل بن يحيى

١٩٣ خروج الرشيد الى طوس

١٩٣ موت الرشيد

B 13156780
Î 15010430

هذا الكتاب

هرون الرشيد ـ العدد الثالث من «كتاب الهلال» ـ يمو لون جديد من الثقافة التاريخية ، وترجمة شائقة لحياة هذا العاهل العظيم الذى طبقت شهرته الاقطار، وكان يحكم دولة عربية اتسعت رقعتها حتى فاقت مساحة أوربا ، وبلغت حضارة الاسلام اوجها فى عصره الذهبى ، ودانت له الممالك والأمصار ، وخطب وده الملوك والأمراء . وكانت بغداد عروس المدن ، ودرة الدنيا ، ومدينة النور والسلام

وقد جلا مؤلف هذا الكتاب حياة الرشيد الخاصة والعامة ، وصور فى تشويق عصره الذهبى من جميع نواحيه السياسية والأدبية والاجتماعية، وكشف عما فيه من محاسن وعيوب فى صراحة وصدق ، وقدم هرون الرشيد انسانا وملكا وخليفة المسلمين

وعلى الرغم من أن عصره امتاز بالأبهة والترف ، فقد بلغت فيه العروبة أوج مجدها وكرامتها . وكان الشرق فى أيامه يحكم الغرب ويوجه مصائر الأمم ، ويحمل مشاعل العلوم والآداب والحضارة الانسانية . . فأجدر بنا فى كتاب الهلال أن نذكر الأمم العربية الآن بهذا المجد التالد ، وما كان للعرب من قوة وصولة ، وحرية واستقلال